JOKER
الجوكر
يسعد غزّة
مروى وناسي
رواية
المنقف

الجوكر

يسعد غزة

الطبعة الأولى 1447 هـ - 2025 م
(ISBN) : 978-9969-605-84- 6
الإيداع القانوني: 2025/08

اسم العمـــل: الجوكر "يسعد غزة"
تأليف: مروى وناسي
عدد الصفحات: 160 صفحة
قياس: 14× 21

الناشر/ دار المثقف العربي للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـــوك:
https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: https://elmothakaf.github.io/Website/index.html
هاتف / فاكس 86 73 49 0675
واتساب/68 04 59 0696
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للمؤلف وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من المؤلف و يستفيد المؤلف من كل الجوائز الممنوحة له من النشر الالكتروني أو الورقي كما أنه هو المسؤول عن حقوقه الفكرية و مقاضاة الأشخاص أو الهيئات التي تقوم بنسخ أو استعمال مؤلفه دون إذنه

للتواصل معنا انسخ رمز الاستجابة السريعة

مروى وناسي

الجوكر

يسعد غزة

Be a king in ghaza

المثقف العربي للنشر والتوزيع

البداية: شرهة للغاية ولذيذة إلى أن يحين وقت الطّعام الحقيقيّ.

مللـت كل مـا بـدأت بـه سـابقا، لقـد علمـت منكـم أنـه أثـار غضبكـم كل ذلـك التذمـر والسّـخط، أوافقكـم الـرّأي لا جـدوى مـن السـخط والسـبّ واللّعـن...

كفانا جديّة، لنمزح قليلا بحذر.

why so serious!

لا فائدة من لعن الحكّام وتشويه صورة الوطن

الجزائر عظيمة جدا كما قرأت عنها في أمريكا.

حتى لو لم أرَ سأصدّق وكفى.

كلمتي الأولى في هذه الملحمة

في العادة يبتدئ الكاتب العاديّ كتابه العاديّ جدا إما ببداية مستهلكة مألوفة منهزمة فيها كل جوارحه وأمنياته وكلماته، مرتدية الشّفاف من الإحساس والمعنى الذي لا يعرف كيف يتستّر.

لكني هنا كملحميّ وبطل وأنا من أقرّ بهذا، وكل ما سأفعله لأجل أطفال غزّة... أعترف بفضل اللّحظات التي ننهزم فيها والتي نقرّر أن نتيه معها، هي تلك النّجاة والمنجاة.

شكرا لأمريكا لأنها رفضتني وشتّت أسرتي ومنحتني عمرا فارغا مثلها تماما، وسلّطت عليّ باتمان وسكان مدينة غوثام حتى تغطّي شرّها الذي أراه اليوم في غزّة وما يحدث لها.

طوابير بشريّة تصفى بالرّصاص وهي تصطفّ لأجل حفنة طحين.

هذه هي أمريكا التي أهديها هذا المقطع، لأنّي لم أكن كاتبا ولا مواطنا مثاليا يهتم للإهداءات داخل كل ما يقوم به.

أهدتني أمريكا كل شرّ هذا العالم، وأهديتها اعترافا جميلا كهذا وبناء هذه اليوتوبيا وحبّ غزّة وقول الحقّ.

أما عن مروى، يبدو أنه لديها من تكتب له حبّا أو إهداء لست أدري مهما يكن، البلاد ليست بشرّ أمريكا، ليست سيئة إلى الحدّ الذي فعلته أمريكا.

جوكـر، الشـرّ فـي كل مـكان، حتـى البـلاد لديهـا وجـه مظلـم لا تعرفـه إلـى الآن.

لكـن أحـبّ أن أقـول إنّ الأخ نعمـة، وهـو وقـودك الحقيقـي لتصنـع مـن نفسـك شـيئا يذكـر.

تحتـاج أن تحـبّ أخـاك حتـى تظـل بخيـر سـواء ذلـك الـذي أنجبتـه أمّـك أو أنجبتـه مدينـة مستعصية علـى الدّمـار كغـزّة وتلـك الظّـروف الصّعبـة.

أختـي شـروق، شـكرا لـك، أنـت الوحيـدة التـي كنـت معـي طـول الوقـت أسـتمد قوتـي مـن حبّـك ومـن صمـودك، أكتـب حتـى أفيـك حقّـك، كنـت معـي بأصعـب لحظاتـي، ولـدت هـذه اليوتوبيـا مـن تحـت جناحـك كغـزّة تمامـا، لا تولـد الأحـلام كبقيّـة الأشـياء الأخـرى.

لم أكن لأفعلها لولا فضل الله ووجودك إلى جانبي.

أريـد أن أكتـب حتـى يتسـنّى للجوكـر أن يعرفـك وأن يحبّـك أيضـا هـو يتخيلنـي متميـزة وقويّـة ومتفـرّدة، وأظـنّ أنّـه لـو جلـس معـك لأعـاد ترتيـب حروفـه ومنطـق كلامـه.

جوكـر، سـئمت الإهـداءات والبدايـات المتصنّعـة بالكتـب، والتـي كثيـرا مـا تفسـد متعـة البدايـة.

لكـن أختـي كمثـل شـجرة حـبّ تنبـت فـي أصـل الـرّوح وتمتـدّ عمـرا مـن الحـبّ والـودّ واللّيـن.

هـي أوّل نقطـة مطـر بعـد عطـش قـاسٍ، هـي أوّل كلمـة كتبتهـا فـي مخيلتـي بعـد صـوم مزعـج، هـي ملقّنـة الحيـاة وسـيدة القـرار.

أختـي شـروق، أكتـب إليـك ربّمـا داخـل هـذه الملحمـة وأخبـرك أنـي أحبّك جـدا ولا أخـت بمقامـك ولا حـبّ يكفيـك ولا عشـق يدثـرك ولا يكفـي عـام أو مئـة عـن ذكـر فضلـك.

اعلمـي أنـك أوّل نوتـة موسـيقيّة تلقيتهـا منـذ قسـى علـيّ الزّمـن وأصبـت بالصّمـم، كنـت أوّل حـرف نطقتـه بعـد سـنوات مـن الصّمـت...
أحبّ ك بكل ما أوتيت من قلب وشغاف ووتين...
ربمـا أكـون شـهيدة داخـل كتابـي هـذا... علـى الأقـل أخبرتهـم أنـك كنـت الحيـاة.

جوكر، ما بك تبكي؟
أهذه أخت أمّ وطن كغزّة؟
نعم، أختي كلّ فلسطين.
كلّ مدينة عصماء
أختي كلّ حديقة أندلسيّة، وكل توشيح جميل
وكل حدائق دمشق وسوريا العطرة.
كل حبّ لم يكتب بعد
كل حرف لم ينطق بعد
أختي بداية كل شيء جميل
أختي أصل كل شيء
مدينة لها قوّتي الآن
إذا مت داخل هذه الحرب

اكتب على قبري شهيدة ماتت بغزّة ولغزّة، ولازال حبّ أختها يحييها.

تعجّب الجوكر وقال: «هنيئا لك بها».

كلمة للسيد المفتش «كمال طوايبية»

جوكـر، لـم تأتنـي رغبـة فـي الإهـداء هـذه المـرّة داخـل هـذه الملحمـة، ولكـن هنـاك شـخص بعـد أبـي... أسـتطيع أن أختـزل داخلـه كل الصّالحين بالجزائـر، لـم أتمكّـن مـن كـره البـلاد مـا دام داخلهـا واحـد كالسّـيد مفتـش التربيـة الوطنيّـة «كمـال طوايبيـة «. نعـم، رجـل بـكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معنـى، هـذا الرّجـل يـا جوكـر ليـس كالبقيّـة، هـذا الرجـل لا يسـتهلك النّاجيـن حتـى يكـون النّاجـي الوحيـد مـن حـرب الوجـود داخـل البـلاد.

لا يقتـات علـى الجيـف، ويؤمـن أن الـدّرر تختفـي فـي باطـن البحـر ولا تعلـو فوقـه سـوى الجيـف.

أتعلـم شـيئا جوكـر؟ قبـل أن نغـادر البـلاد أريـد أن أخبـرك أن هنـاك شـخصا صالحـا، وهـو السـيد الموقـر: «كمـال طوايبيـة «. نعـم، لـم ألقّـب أحـدا قبـلا بكلمـة سـيّدي، وهـذا مـا جعـل جميـع المـدراء فـي عملـي البائـس ينهشـونني مـا اسـتطاعوا...

ولم يعلموا أنّي تركتهم لله، فليحاربوه إن استطاعوا.

جوكـر، هـذا السـيد المحتـرم غيّـر نظرتـي لمهنتـي دون أن يـدري، جوكـر بفضلـه أدركـت أن تميّـزي نعمـة... أنّنـي أقـوم بالصّـواب.

جوكر، لقد كان يصلحنا بطريقة كنت أتمناها.

كان يجعلنـا نثبـت أن حـبّ العلـم ليـس موضـة والتفـوّق ليـس ريـاء، أعطانـي الأمـان داخـل زاويـة تفتقـر لـكل مـا لـه صلـة بالأمـان، أتـدري مـاذا فعـل؟!

لقد آمن بي، لقد بحث عن حقيقتي وسط كلماتي، لقد كان ربانا ناجحا يعرف أين يقود سفينته.

لقد كان جيد الإنصات لحروفي وعناوين كتبي، وكان يبحث عمّا يوصله إلى حقيقة السّيدة التي بين كفّتي مسؤوليته.

كنت في البداية خائفة من مجيئه، فأنت تعلم أن الشّخص إذا تميّز سلط عليه الشّيطان أعوانه، كنت أسمع ما يقال عنه من حبّ شديد للصرامة والعمل المتفاني، وأنّه يتخطّى الحدود بالتكلّف.

لكن جوكر، ليس من يسمع كمن يرى.

كان العون الإلهي الذي غيّرني، وهذا أنا أكتب من جديد.

أعلم أنه سيقرأ كلامي، وكم تمنّيت لا يقرأه أعدائي...

ماذا؟ أعداؤك!

مروى، وهل لديك أعداء؟

لماذا؟ هل تراني ملاكا!

أنت لا تعلم أني مدرّسة سيئة حسب شهادات مديرة عملي ومديري ومتكبّرة ومتعجرفة في نظر زملائي وأصدقائي.

ماذا!

أنت تقومين بعمل جبّار، أنت تمكنت من إقناعي بتركي المسيحيّة. واللغة الإنجليزيّة، والآن تريدين بناء اليوتوبيا، فكيف يرونك سيئة؟

نعم جوكر، كلّ يراك بعين طبعه.

الغيرة هي من أحرقت البلاد جوكر.

في رأيك ما سبب الانقلابات؟ وما هي مشكلة يوسف مع إخوته؟

لكن سأردّ دوما بأدب جوكر، وهذا ما يمثّلني. تأمّل معي سورة يوسف لمّا تحدّث الله على لسان يوسف في القرآن، وقال: «لقد نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي». هنا يكمن معنى الرّقي والصّفح الجميل، رغم أنه مظلوم وبدأ بنفسه وعادة في ترتيب اللّغة، وخاصة عند الشكوى نشكو الظالم ونذيل القول بأنفسنا وليس العكس...

أتراني أرفع قدرا من يوسف؟

رائع!

تماما مثل السيد المحترم كمال سيد، عظيم يتشرّف به الوطن وكل من في الوطن.

هنيئا للأجيال التي درست وتتلمذت على يديه.

سيدي، ستقرأ كلماتي، أشكر لك لحظة الصّفر...

لحظة البداية، أين أيقظت الأستاذة الحقيقيّة داخلي.

أين قلت لي: «تستحقين الأفضل». شكرا لأنّك رجل مواقف، لأنّك غيرتني دون أن تدري.

شكرا لإخلاصك لمهنتك، شكرا لدعمك لأساتذة اللّغة العربيّة، شكرا لأنك فخر وتستحق الذّكر.

أشكرك بدلا عن كل طالب وأستاذ وابن وابنة،

الحمد لله الذي يسّرك وسخّرك لتعليم الخلق الرّفيع وإعلاء اللّغة العربيّة.

شكرا لأنك تستحق لقب العظيم والصانع الحقيقيّ للعلم والأدب، كفاك شرفا أنك سيد الأدب والأدب.

هل أكملت شكرك؟ يبدو أنه اعتراف طويل جدا، هذا تخطى الإهداء!

نعم، فالكلام في حقّ الطيبين يطول.

جوكر، الحمد لله أنه وفقني حتى أكتب لخلقه ولصدقه في عمله هذا الاعتراف، وشكرا لأنك قلت اعتراف لأنّه ليس مدحا.

الاعتراف يكون بحقّ الأبطال ومعلمي الخير وقائدي البشريّة نحو المجد.

أمّا المدح فيجب في حقّ الضّعفاء المتكسّبين، بالمناسبة شكرا لكل من أساء بي الظنّ، ولكل من قال عني سوءا، هنيئا لي بملتقطي سيئاتي.

مروى، أنت جريئة جدّا.

نعم جوكر، ولهذا اعترفت.

وسأعترف دوما لكن على طريقة يوسف عليه السّلام وليس على طريقتي، الاعتراف دوما للكبار.

إلى السّيد مفتش التربية الوطنيّة؛ كمال طوايبية، شكرا لكلّ ما قدمته لمهنتك وللغة القرآن، كل عرفاني واحترامي وتقديري.

شكرا لك أيّها الأستاذ الحقيقيّ..

صنعت بالأمس طلبة

واليوم تصنع من يعطي العلم الحقيقيّ.

شكرا لأنك ورثت مكارم الأخلاق.

شكرا للوطن الذي أنجبك مرّة ولوالديك مئات المرّات.

رحم الله أبا خلفك ومن خلف سيدا عظيما مثلك ما مات.

أقول لك سيدي المحترم ألف شكر لأنّك ذلك الشّخص الصالح والسيد الذي لو كان الجميع بمثله لصنعنا مدرسة جزائريّة حقيقيّة بامتياز لا تهزمها المناهج الفاشلة ولا المدرسون السيئون.

سأمنحك هنا شيئا مختلفا، شيئا لم تقرأه لي سابقا.
سنتعاون معا حتى نضع في كل بيت لعبة ولهّاية وتلفاز... وسجّادة عريضة.
لكن سنقطع شبكة الأنترنت اللّعينة، ولا وجود للفيسبوك ولا الإنستغرام.
سنشتري اليوتوبيا، وسنبني المساجد والمدارس، وقبل ذلك سنهتم بأماكن لعب الأطفال سنحرص على الاعتناء جيدا بهم هم بالنسبة لي كل أمل اليوتوبيا خاصتي.
لا يمكنك تصديقي ولا يمكنك تكذيبي أيضا، لديك كل الصلاحيّة لشتمي أو حتى للضّحك.
لكن جوكر صدّقني، كل اليتامى منبوذون والحكام كذلك...
لكن أذكرك دوما أني ابن غير شرعيّ، لكل فكرة جائرة وأب متسلّط، لكل ابن نبت في الظلّ...
ولكلّ أمّ عاهرة... ولكلّ اسم لقبتني به...

في اليوتوبيا الجديدة سأفعل الكثير حتى أقود نفسي كإمام وأرعى الجميع كأطفال جفوا وانقطع عنهم الحنان والأمان مبكرا، حيث كانوا عاجزين حتى أن يصرخوا صرخة أخيرة.

إلى صديقي محمد الأنيس بوحجة، الذي أعجبته صراحتي
وكان ينتظرني دوما، شكرا لك على ثقتك الكبيرة بي
سأكتب ما كتبته لي في محادثتنا
كعربون وفاء ومودة بيننا.

إلى الكاتبة الرّاقية، شكرا لأنّك وضعت بين يدي كتابك «حضرة الجوكر»

لم يكن مجرّد هديّة، بل كان نافذة على عالم لم أعتده كثيرا، مختلف في فكره، شجاع في لغته، ومتعدّد في رسائله، توقفت عند بعض المقاطع أكثر من مرّة، بعضها جعلني أطرح أسئلة لم تخطر لي من قبل، وهذا وحده كاف لأدرك أنك تكتبين بعمق.

قد لا أكون قد أنهيته بعد، لكنني أعلم أن بعض الكتب تقرأ على مراحل، حين نكون مستعدين لها تماما.

في انتظار الجزء الثّاني، ومن يدري؟

ربّما أجد فيه الجوكر الذي يشبهني، أو الذي كنت أخشاه أن يشبهني.

أنيس.

شكرا لك من القلب، فبفضل كلمات كهذه واصلت وأنجزت هذا الجزء وكلّي فخر بقرّائي.

شكرا لكل من يقرأ بطولاتي وملاحمي... الكتابة ليست سهلة كما نظنّ لأنها تكشف حقيقتنا، تفضحنا دون وعي منّا، شئنا أم أبينا إنّ المخاطرة بتغطية أنفسنا داخل كتاب أكبر ملحمة وأعظم مخاطرة.

على حدّ قول مدينتي الفاضلة:

عندما تتحول المدن المهزومة التي قرّرت مؤخرا وبكل قوّة أن تتخلى عن أيّام الخريف والنزيف.

وقرّرت أن تترك العصفور الذبيح يرتاح أخيرا من المقاومة، لأن أجنحته قد تعبت وهي مكسورة وهي تغرق في الألم والحزن.

الحزن في الغزّة لا ينبعث من الرّماد مجدّدا ولا من أحلام الكلاب الضالّة التي شرّدت الأطفال وحرمت أفواه الزّهر من رشفة المطر.

الحزن في غزّة كلحظة «اليوفوريا» التي تنفجر فيها أثواب الحزن أملا وما أضيق الحياة لولاه!

«اليوتوبيا» التي بنيت هنا ليست مجرّد بناء وليست مجرّد فوضى، إنها اللّحظة الخلاقة التي عزلت كل أصوات العالم ليبقى صوت واحد وهو صوت الحقّ، صوت غزّة وهي ترفع آذانا جديدا لا يعرفه العرب الخونة، العرب الأنذال.

سيأتي الرّبيع مختالا بكوفيته وقميصه، سيحمل الفأس وغصن الزيتون الأحمر وسيغرس في عيونكم ليلا طويلا، وفي قلوبكم شوكا لن يترككم تأكلون أو تشربون.

سيستمر الرّبيع في النمو داخل رحم كل ثوري حقيقيّ، داخل الآذان التي سمعت صراخ فلسطين وما لبّت وما تحركت..

سمعتم أن الجنين في غزّة فقط يموت في بطن أمّه شهيدا.

رأيتم كيف تتطاير جثث الأطفال مع القذائف أمتارا عن الأرض.

رأيتموه وهو يحتضن أخاه وينادي بأعلى صوته: «حسام، أخبرني أنك حيّ، لا تقل أنك ميت».

سمعتموها تقول: «يا فلان، والله مات الأولاد وما أكلوا شيئا».

سمعتو أبيض حلو وشعرو كيرلي.

شفتو روح الروح وهو يدفنها ويحتفظ بحلقها.

سيزهر الرّبيع والفردوس من قبورهم وسيغلقون عنكم باب الجنّة.

سيزهر الربيع حبّا وعوضا وعدالة وحقّا، وسيحمل معه ريحا من الجنّة تعيد كل الذين فقدناهم.

ستحقن الدّماء وسيصنعون منكم طحينا تأكل منه نسور جهنّم، ولن يبقى منكم سوى رائحة نتنة كريهة.

جوكر، غيّرت أفكاري قليلا حمدت الله أن الحارس الشخصيّ للرايس علم بخطّتك فقام بإبعادك دون عقوبات، فكما تعلم أنت مواطن أمريكي.

أتعلم لماذا كنت سعيدة بالأمر؟

المشروع الذي كنّا نخمّن فيه بات قاتلا وكثير من المعارضين الذين قالوا إنّنا نعيب سياسة البلاد وإنّنا بدورنا نفسد ولا فائدة من ذكر السلبيات والعيوب دون إيجاد حلول لها.

وما همنا إن لم نكن بمستوى تطلعاتهم السيئ؟

سيئ؟

نعـم، هـل تعتبريـن إدانتنـا شـيئا عاديّـا؟ لمـاذا يخافـون مـن الحقائـق ويكرهـون تذكّـر مآسـيهم؟ بـل حاضرهـم المأسـاوي.

لكـن مـا الجـدوى؟ هـم يعلمـون ويريـدون حـلا، مـا ذنبهـم ومـا ذنبنـا أيضـا؟ هـذا مـا يريـدون إيصالـه جوكـر، لا تقلـق.

أريد أن أذكّرك وكل المواطنين الذين ينصتون لنا الآن.

نحـن شـعب لا نصلـح سـوى أن نكـون عبيـدا، يصنعـون مـن ذكرياتنـا ألعابـا لأطفالهـم ومـن لحومنـا طعامـا لكلابهـم، ومـن أحلامنـا مهـازل يضحكـون عليهـا.

ومازالـوا يدينـون لفرنسـا بالـولاء، والخبيـث ماكـرون يمنـع عنهـم كل شـيء ويقـدّس اللّغـة الفغنسـيّة، أكتبهـا هكـذا لأذكّرهـم أنهـا لغـة القتـل والتاريـخ الأسـود.

لا فائدة من تعليمهم أن كره فرنسا عقيدة.

وهـم مخلّفـات فرنسـا التـي تفتـك بمنظوماتنـا التربويّـة وخطبنـا بالمسـاجد وتـأكل بقايـا المجاهديـن والشّـهداء.

لا أعلـم تحديـدا كيـف سـأبدأ الحديـث، ولا كيـف أفكّـر ولا كيـف سـأبني اليوتوبيـا أو أيـن؟

لكن تعلمين أنه لا مفرّ من التخمين والبناء والاستعداد.

نعم، أعلم ذلك.

جوكر، لا أحبّ أن أنشر الخوف والحيرة فيما أكتب ولا أريد أن يمثّل حديثنا تهديدا لأيّ كان، كما أخاف أن أخيّب آمال القلّة التي تعتمد علينا، لكنّي عدلت عن تغيير ما لم يتغيّر، ما ذنب وطني فيما يفعله هؤلاء؟ ما ذنب الجزائر؟

لا أريد أن أكره وطني ولا انتمائي إليه، أتعلم؟

صدمت لمّا وجدت باعتصام للأطباء بالبلد شعارات مقتبسة من كتابي حول لعن الوطن وسبّه وسبّ من يسيره حزنت، لقد كنت أكتب دون وعي جوكر، صحيح أني رغبت بالتغيير لكن لا يحقّ لي أن أشوّه صورة وطني، هناك من يقرأ لنا خارج البلد.

أقلّ ما يمكنني فعله تقديم صورة جيدة ولو بلغة مزيفة وتواريخ مشوشة وحقيقة مغلوطة، وأكبر ما يمكن تقديمه لاحقا هو تصحيح المسار البنّاء والتعمير.

سأبني اليوتوبيا بعيدا عن كل الدول العربيّة العاجزة.

سأبتاع لنا أرضا إن لزم الأمر، وهويّة وتاريخا وحقيقة وماضٍ وحاضرا وسنصنع المستقبل.

لكني أنا من سيتحمّل كل شيء.

كيف؟

لماذا جوكر؟

لا يمكنك مواجهة الأتباع ولا الخونة ولا الحركى ولا القوميّة، سيتبعوننا الاستخبارات خطيرة وأنت لا تملكين أدنى فكرة عن ذلك.
حسنا، أعلم حتى هواري لن يدعنا وشأننا، لكنّي سأتابع.
سأحمل كل ما بقي لي وأرحل جوكر، لا يمكنك أن ترتاح في نفس البيئة التي جعلتك مريضا، سأذهب بعيدا حيث يمكنني شراء كلّ الأماني وبيع القوميّة والشياتين.

من اليوم فصاعدا سأرتّب كل ما يلزم فعله، لم أعد أريد أن أسمع شيئا عن الشكاوى، اكتفيت أنا الآخر من الرّعب والخوف والرّجاء وأن أستيقظ على نفس الصّباح ووجه الشّمس نفسه.

ماذا تقصد؟
أريد أن أصنع بلدا من الأقمار الهادئة والشّموس التي لا تغيب، وأبحث عن نفس لا يتقطّع وكلام لا تلوّثه النوايا الخاطئة، ولا تشير إليه يد القوّاد.
ولا تدوسه الأرجل العفنة المتّسخة، وإن كنت تسمحين لي أريد أن أحمل ما تبقّى مني أيضا؟

حسنا، تتحدّث وكأنك وحدك، أنتم في أمريكا تتحدّثون كثيرا بضمائر الغائب والمفرد لكن في دستوري وبلدي ودييني التحدّث بلفظ الجماعة أكثر احتراما وودّا، أظنّك قرأت المصحف وتعوّدت على اللّغة بعض الشيء.

نعم، قليلا.

هل وجدت أن الله عزّ وجلّ يتحدّث بضمير المفرد أم بضمير الجمع؟

بلى، وجدته يقول تعالى جلاله: «نحن».

إذن تعلم.

لماذا أزعجك الأمر كثيرا؟

إنها الغيرة يا جوكر.

إنه الحبّ للغة والدين الذي أريد أن أزرعه في اليوتوبيا... نفسه الذي افتقدناه في مدارسنا ضمن تلك المنظومات التربويّة المفرنسة الفاشلة..

أووو... تذكرت، لن أعيب مجدّدا، إنها زلة تفكير.

مهلا، قلت قبل الآن تحمل ما تبقى منك... ماذا كنت تقصد..

هل تنوي بناء اليوتوبيا وتحلم بالثورة وأنت شتات؟

لا أقصد ذلك؛ بل بقايا هارلي كوين وصديقي الأخضر.

يرتسم حزن كبير على وجه الجوكر... أحزن كثيرا لأجله.

وشيئا من أرضكم الطيبة وقليلا من أمانيك وشيئا من مستقبلك، ولا شيء من الماضي والتّاريخ الذي لطالما شككت فيه.

جوكر، لماذا تبدو حزينا؟

... أبدو أكثر قوّة منك.

كنت أعجب بشخصيتك في الأفلام لقوّتك ومدى سخريتك من هذا العالم البائس، هل تتذكر عبارة:

Why so serious!

نعم، أتذكّرها.

أنـت تعيدينني إلـى أمريـكا اللّعينـة، وأبـي الـذي لـم أعـرف منـه الرّحمـة يومـا ولـم أر الخيـر منـه أبـدا.

أنت تعيدين لي ذكرى ابتسامتي البغيضة.

لا جوكر، لم أقصد فقط حزنك... لا يساعدنا البتّة.

لا يمكـن للمواطـن الجّيـد ولا السياسـي الجيّـد أن يكـون حزينـا وليـس رحيمـا كمـا عودونـا أن الحاكـم الرّحيـم عـار علـى الحكـم والرّعيّـة.

جوكر، لماذا عدت أدراجك ببساطة وسهولة لمّا أبعدك الرايس؟

ماذا لو أجلت هذا السؤال لأجلي؟

حسنا كما تريد.

جيد أنك لا تصرين.

هنـاك حلقـة مفقـودة مـن كل الروايـات سـواء التاريخيّـة، السياسـيّة، الاجتماعيّـة.

مثل ماذا؟

لـم يكـن الرّئيـس كمـا تصورتـه؛ فاشـلا ينعـم بالحريـر والنـوم والجواري، أنـت تعلـم مـن أقصـد بكلامي...

ومن يقرأ؟

لا يهمّ، سيفهم في آخر الفصول.

بل كان مريضا وبنكه فارغ تماما، وحتى عندما أتاني ركب الحصان ولم يكن يمتلك سيّارة.

والرايس المقعد ماذا فعل؟

هههه... هاهاهاها تعلم جيدا، يخاف رسائل العدوّ، يخفي لهجته ولغته بالمحافل الدوليّة ويتقن لغة السفّاح.

يبادله التهاني وجثثنا ومشاريعنا ويفديه بشبابنا وخيرات البلاد، كان مريضا يعدّ أموالنا ويحتفظ بها لمستقبل أبنائه ويحفر لنا كثيرا من البيوت الصغيرة تقينا شرّ الموت، وغبار الضياع، كان دوما يخمّن ببناء مدارس لشيوخنا وكثير من مشاريع التشجير كي لا يختنق البلد.

كفى مروى، كل هذا لا جدوى منه سبق، وأن وبّختني هذه مجرّد ترهات، كلّهم يعلمون نخبة الوطن والعامّة والسوقة، ما الفائدة؟

لا حديث بعد الآن، سنبدأ الحديث غدا حول مشروع «اليوتوبيا» ونجمع الشّباب وكل زهرة متبقية، وكل شيخ لا يكذب، وكل شجرة بقيت حيّة في هذا البلد وسنمضي.

السياسيون كما يقولون متشابهون، فهم يعدونك ببناء جسر حيث لا يوجد نهر أصلا.

خذي قسطا من الرّاحة وسألتقي بالشيخ أحمد رئيس الحي علّه يجمع بعض الشبّان والشّابات الرّاغبين في الرّحيل، وسأعود غدا في الصّباح الباكر.

«ستبدأ رحلة هذا الكتاب

للأسف سأتحدّث بكل حزن

بكل صدق

خنّا الإنسانيّة في البلاد مرّة

وفي غزّة مرّتين

ربما ستدرك أين ستكون وجهتي

أُترك العربيّ المنافق

جانبا وارتحل معي

أحتاجك لاحقا في الحرب».

«السياسيون مثل حفاظات الأطفال
يجب تغييرهم باستمرار ولنفس الأسباب».

مارك توين

جوكريات

«لا تسرق فالحكومة تكره من ينافسها».

باولو كويلو

بدايـة الفصـل الجديـد والحكومـة الجديـدة التـي سـأبنيها بـكل ثقـة وحـبّ وشـفافية وانتخـاب طبعـا.

لا وجود منذ البداية للتحزّب

ولا وجود للخطابات الطويلة

ولا وجود لخطبة الجمعة الموحّدة والمدروسة

ولا وجود لخزائن كثيرة

هناك خزنـة واحدة وهي أقلّ من خزنـة الحنطة والشّعير

كما يقول هاري ترومان:

«لا يمكن أن تصبح غنيا عن طريق السياسة إلا إذا كنت فاسدا».

إيّاك أن تقرأ الجزء الأوّل
حضرة الجوكر وتأتي إلى هنا بغضب
لأنّك ستحترق

جلست أفكّر مليّا، لا مكان لبناء صوت جديد و»يوتوبيا» جديدة سوى المجازفة بدخول أطيب الأراضي التي للموت فيها طعم آخر، وللصّبح فيها وجه لا يعرفه أحد، وللابتسامة هناك طعم آخر، وللحقّ ثمن أكثر من الذي ندفعه هنا يوميا دون جدوى.
سأكتب رسالة قويّة وواضحة للجوكر، ستكون ذات صوت ومعنى وتعبير.
سأذكره بأسمائنا وخطّتنا وبداية هذه الطريق الوعرة.

قرّرت الذّهاب إلى غزّة أخيرا جوكر، سيفرح هواري كثيرا، إنه الرايس الإنساني الذي لم يكن يريد أن يموت، لكن دائما يفسد الخونة متعة السياسة؛ أقصد الحياة والسلطة الصحيحة النزيهة إن صحّ تعبيري.
غزّة هي معقل الصوت الأوّل والدوي الأخير، هي موطننا الأصليّ، هي كل بحّة في أصواتنا، وكل شوكة تؤذينا كلّما ابتلعنا ريقنا الخائن.
من فضلك لا تخالفني المكان حتى الشيخ أحمد سيرحبّ بالفكرة، وكذلك سمر تلك الفتاة القرويّة البسيطة التي كانت تحلم بحياة بطوليّة وثوريّة حتى تحمل معها الزّهر والقمح والأمل الجديد لغزّة.
«يوتوبيا» الظلّ و»الرّماد» و»الدّم» لا شيء يصلح لليوتوبيا سوى المقاومة برائحة الكرامة والدّم.
جوكر، لا أرض ستحمينا كما تفعل غزّة، لا ماء من الآن فصاعدا سيروي عطشنا، ولا أرض ستحملنا بعد الآن ولا سماء ستقينا بعد الآن

خاصة بعد أن رأيتهم يموتون جوعا ونحن نتفرّج. آخر ما توقعته أن نرمي لهم بقارورات بها طعام بعد أن ضاق الفضاء لتصل من مصر إلى الجزائر.

ولا أحبّ الحديث عن قافلة الصّمود التي بدأت بأمل كبير في البداية لكن سرعان ما انطفأ، جوكر سنكون قافلة صغيرة بحلم كبير وجرح لم يشفى، بأسماء كبيرة سيكتبنا التّاريخ من الأوفياء إن متنا؛ لأن الشّهادة أمر عظيم لن ينالـه القساة مثلهم.

أعلم أن الفكرة جريئة ومخيفة، لكن يبدأ الوجود والبناء من أوّل خطوة سنقوم بها، دعك من الجزائر لأنّنا جزء من سجل أمريكي خبيث يجيد دعم القتلة ويغير مكان القتلى بمواليد جدد هي ميتة أصلا، حتى يضلّل العالم ويخبره أن الدول المتخلفة مثلنا على قيد الحياة ولا تزال تتنفس وتأكل الخبز، وتزعم نفسها كبيرة بقطع الغاز والبترول وكل ما تخبئه الأرض الطيبة داخلها، لم يسلم شيء، أخشى أن يأتي يوم ويصادروا حتى جثث شهدائنا، ويصادروا دماءهم حينما ينتهي البترول ويصدروا أنفاسنا بعد أن ينتهي الغاز الطبيعيّ.

المهم، دعنا من البلاد وماضيها وحاضرها وإن لم نتحرّك الآن فلن يكون لها مستقبل كما نأمل، وستصبح الفريسة التّالية لأنها دسمة جدا.

جوكر، إليك الموقع والأسماء، أنت أيضا أيّها المستمع الرّائي تذكر معي جيدا سننطلق فقط... نريد دعواتك.

هذه الرّحلة مزيج بين الرمزيّة العميقة والثورة التي سنبنيها، سنبني ما لم نستطع بناءه في البلاد، سنكون كما «الرايس هواري» سنكافح حتى آخر اغتيال ولحظة.
ستبتسم غزّة يا جوكر ثق بي، سنتجه لغزّة للبناء وليس للبكاء على الموتى وإخافة الأرامل وترتيل دعوات الصّبر التي ملّ أصحابها من تكرارها في التيك توك والفيس دون نيّة صافية في الإنقاذ والتغيير.

مروى: قويّة الشخصيّة والأهداف تحاول ترويض العالم بطريقتها بعد أن خاضت أصعب المعارك مع ذاتها وغيرها، تهرب من حياتها الروتينيّة داخل البلاد ومهنة أستاذة إلى الكتابة والفنّ والبوح، وتطرح دوما أسئلة وجوديّة: لماذا يولد البعض فوق التبر، وآخرون فوق الرّماد؟

الجوكر: شخصيّة شريرة في الأفلام، مهرجة تسعى للفوضى والضّحك فوق الدّمار وبقايا المدن المحطّمة، لكنها هنا رمزٌ لفوضى خلاقة واعية مبدعة، صوت للتحرّر من قيود العائلة الظالمة والمجتمع المنافق، رفيق روحانيّ حكيم يفيدني من تجاربه وما تعلّمه في أمريكا حتى أحقّق غايتي. يسعى معي لبناء غزّة جديدة، تكون مشروع اليوتوبيا الجديدة من بين رائحة الدّم والعفن والجثث، وليست اليوتوبيا التي تحدّث عنها أفلاطون، تبنى من المثاليات والورود والشلال الأسطوري..

إذا فـي كتابـي هـذا، انتهـى فصـل الشّـتم والسـبّ واجتـرار الماضـي والبـكاء علـى ميـت صـار رمـادا.

سـمر: فتـاة قرويّـة بسـيطة حالمـة قويّـة جـدا، هـي كأرض غـزّة التـي تهتـزّ كل يـوم بمقاومـة جديـدة ورغبـة كبيـرة فـي التحـرّر مـن أيـدي الـكلاب ورائحـة الجثـث، تحـبّ الأرض كثيـرا، متعلّقـة بالقمـح والشّـعير وضيعتهـم الصغيـرة ودجاجاتهـا، تمثّـل أرضهـا تلـك الخريطـة الصغيـرة التـي تدعـى فلسـطين.
أحتاجهـا فـلا حلـم يولـد دون رائحـة صادقـة للطفولـة، ولا مقاومـة سـتبدأ دون صـوت طفـل يبكـي.. يصـرخ بالجـوع وبطوننـا مليئـة صديـدا وقيحـا.

الشـيخ أحمـد: هـو الجانـب الرّوحـي الجميـل فـي هـذه الرّحلـة، هـو الشـيخ التقـيّ الواعـي، يسـهر علـى راحـة الجميـع وتـوازن الحـي ويبعـد عنّـا المشـاكل، يسـاعد شـبّان الحـيّ ويجمـع الأطفـال بالمسـجد الصّغيـر للمدينـة حتـى يـدرس معهـم القـرآن.
شـيخ سـتينيّ ذو لحيـة بيضـاء وشـارب كثيـف ووجـه كالغـرّة أبيـض، وعينيـن مليئتيـن بالحكمـة والتجـارب وكل مـا خطّـه القـدر.

وبعض من المواطنين المخلصين، المحبّين للحرّية والنّجاة والتغيير.

جوكـر، نلتقـي غـدا بتمـام السّادسـة صباحـا، سـأحضر معـي سـمر والشـيخ أحمـد وننطلـق.

حسنا، اتّفقنا.

فلنتوكل على الله.

أراك لاحقا.

وأنـا أرتّـب أمـوري مـع العائلـة رفقـة سـمر، بـدا الجوكـر وكأنـه لـم يقتنـع برسـالتي وكلامـي، مـن ناحيـة الخـوف نعـم، دخـول غـزّة الآن مخيـف لكـن نحـن مجبـرون لأنّنـا وصفنـا أنفسـنا بالإنسـانيّة.

بعد وهلة صغيرة.

يـرنّ هاتفـي، أتفقّـده وإذا بـي أجدهـا... رسـالة مـن الجوكـر كلّهـا قـوّة وعزيمـة تفـوح منهـا رائحـة الأطفـال واليتامـى، والنّـور الـذي سـيغزو قبـور الشّـهداء ويعيدهـم إلـى غـزّة فـي هيئـة يوتوبيـا جديـدة.

قـرأت رسـالتك، أوافقـك، كل مـا سـتقومين بـه لأنـك كمـا أرى أصبحـت قائـدة اليوتوبيـا الجديـدة.

إذا اتفقنا.

جمعـت كلّ قـواي وأمانـيّ تلـك اللّيلـة وفوّضـت الأمـر لله، وتوسـلته أن يعيننـي... كنـت أفكّـر حتـى تمكّـن منـي النّـوم أخيـرا...

كنـت فـي بدايـة النّـوم أحلـم بغـزّة، وأرى أنفاقـا كثيـرة وظلامـا وأطفـالا عـراة يبكـون، وأمّهـات يرحبّـن بـي وكلّهـن أمـل، وشـبابا تائهيـن بيـن جثـث أهاليهـم.

ثم رأيتني أعبر جسرا مهترئا اسمه «النور» كان طويلا جدّا، كنت خائفة من أوّل خطوة فيه لكني تشجّعت، تذكّرت أن غزّة تنتظر ولن أنتظر أحدا حتى أحقّق ما كنت أرغب دوما في تحقيقه، رأيت تحت الجسر الجزائر، نعم كان بلدي وكأنه أسفل خطّ النّار لا هو قريب منها ولا هو قريب من الجنّة.. ما إن صرت بمنتصف الجسر حتى التقيت «الرايس هواري» بكامل أبهته وهيبته ينتظرني، لم يكن هذه المرّدة على حصانه ولم أر سي لمين، كان الرايس سعيد جدا.

نظر إليّ بحزم وقال: نعتمد عليك جميعا، حاولي ما استطعت وإن كان آخر ما تفعلينه، احملي شيئا من التّراب بيدك وشيئا من العزّة المتبقية للوطن ورائحة البلد واذهبي..

هممت بالاقتراب منه فنهرني بشدّة، وقال إنّه هو التاريخ الصّادق، وهو المقطع الصحيح بالتّاريخ، أعطاني رداءه ما يسمى بالعاميّة «البرنوس» كان ثقيلا جدا وبه رائحة بيت الأجداد.

به رائحة تشبه تلك التي أشمّها عند قبر جدّي الذي اغتال الاستعمار، كل شيء فيه حتى اسمه ومكان وفاته.

ذهب الرايس كعادته..

أكملت السير فوق الجسر حتى أدركت في لحظة أن الجسر بلا نهاية، وكلّما ازداد التقدّم كلّما ضاق الجسر وأتعبني الطّريق...

حتى أفقت على صوت ديك حادّ جدا، إنه وقت الفجر...

توضأت بعد أن جاهدت نفسي، حتى أفارق مضجعي، تهيأت للصّلاة ودعوت الله أن يوفّقني في خطوتي القادمة، لأنّها ليست باليسيرة.

ودّعت أهلي وتركتهم في أمان الله وحفظه.
لـم تبـك أمـي ولا أبـي ولا إخوتـي؛ بـل كانـوا سـعداء ويعلمـون أن الله سـيحميني.

توجهـت إلـى القريـة بعدهـا، بعـد أن حملـت أغراضـي التـي أحتاجهـا واتصلـت بالشّـيخ أحمـد حتـى نلتقـي بينمـا أحضـر سـمر، ذهبـت إلـى القريـة. التقيـت سـمر رفقـة «ميسـون» جارتهـم، كانـت تصـرّ أيضـا علـى الذهـاب وهـي بعمـر الأربـع سـنوات، هـي تعلـم أنـه لا يمكننـي أن أضحّـي بذهابهـا، لا أتحمّـل أن أخسـرها مـع أطفـال فلسـطين.
أخبـرت سـمر أن تجمـع حقيبتهـا وتـودّع أمّهـا البطلـة التـي تركتهـا تذهـب معـي، وإن شـاء الله سـترانا بخيـر.
دخلـت سـمر لتأتـي بأغراضهـا... وصـل الشـيخ أحمـد رفقـة علـي وخالـد، شـابان فقـط مـن الحـي أرادوا الذهـاب معنـا لانتـزاع «يوتوبيـا جديـدة» وبنـاء مـا نحلـم بـه علـى أرض تسـتحقّ كل الأحـلام الجميلـة.

يبدو أنّ الشيخ أحمد جهز كل ما نحتاجه.
نظرت إليه قائلة: هل يمكننا أن نصل بهذه السيّارة؟
فأجابني:»ولـم لا، فهـي مـن طـراز قديـم ومعـروف وقويّـة ورثتهـا عـن أبـي».
وتضحـي بهـا معنـا لأجـل اليوتوبيـا، وحتـى ندمّـر الدسـتوبيات الظالمـة التـي خنقتنـا بظلّهـا المتعفّـن السـامّ.

نعم مروى، بحول الله أتمنى أن تنجح فكرتنا ونحن لا نملك من العرب إلا نحن.

لا يهمك، فالذي سنواجهه سيطهّرنا من كل ذنب اقترفناه، سيعيد ترتيب التّاريخ كما أردناه.

تذكر أنّني في الخريطة لا أبصر سوى غزّة.

ودّعت خالتي حكيمة وطمأنتها عن سمر، ودّعت ميسون بقبلة حارّة جدا... كنت أودّ أن ألتقي بغيث، ربّما كنت سأطرح عليه الفكرة رغم أنه لا يقيم بالبلد، ولكن لو طرحتها لربحت مقاتلا عنيدا لن يبخل علينا ببناء اليوتوبيا.

فقالت سمر: لقد غادر منذ يومين لكن لم؟ لم سارع بالمغادرة؟

لا يهم الآن، ودّعت وجه القرية الطيبة ونظرت إليها نظرة شاملة وكأني أحلم ببناء قرية جميلة مثلها في» يافا» و»الشجاعيّة « «ورام الله وغزّة»...

أنا ذاهبة وأحمل بيدي دفتري الذي كنت دوما أكتب فيه عيوب المكوث ببلدي وذنوبه وخطاياه، علّني هناك أبني كل ما خططته وأردته.

أردت الذهاب إلى قاعة السينما القديمة، أين التقيت جوكر أوّل مرّة، لكن جوكر نهاني وقال: كلّ شيء أصبح من الماضي.

انطلقنا نحو الطريق الرئيسيّ الذي يقودنا إلى مصيرنا وكفاحنا، ركبنا السيّارة الكبيرة البيضاء كما هي بلادي ونوايانا جميعنا في رغبتنا الدفينة بالبناء.

رحـبّ بنـا الشـيخ أحمـد، وقـال فلنتـوكل علـى الله بعـد أن ركـب الجوكـر ملقيـا السّـلام ببرودتـه المعتـادة.

تتكلّم سمر وتقول للجوكر:

ماذا سنسمي هذه الرّحلة؟

قال لها:

اسألي القائدة صاحبّة الفكرة.

نظرت إليه وقلت:

جوكر، لماذا أحسّ أني أتحكّم فيك لا أتكئ عليك؟

لا عليك، أمزح فقط مع سمر.

دعابة مزعجة.

حسنا، فلنسميها رحلة الجوكر إلى اليوتوبيا الجديدة.

هههه ضحكت ما هذا الاسم؟

نطقت سمر قائلة: لنسميها رحلة «مادلين» تيمنا بها.

من أين تعرفينها سمر وأنت صغيرة ولا هاتف لك؟

لكـن لدينـا مكتبـة ظريفـة فـي القريـة، قريـة «لالـة فاطمـة نسـومر» فيهـا مكتبـة عظيمـة وكتـب جميلـة وأكثـر تتعلّـق بالتاريـخ.

جيد جدا أنك تطالعين سمر.

قاطعتني، وقالت:

أنـا وميسـون، زهـر ومـي نتنافـس علـى القـراءة، أمّـي تشـجعنا كثيـرا أن نقـرأ وهـي فـي الأخيـر تشـتري هديّـة لمـن يطالـع أكثـر.

ما أجمله من سلوك! حفظ الله لك أمّك.

ينظر جوكر إلينا:

من تكون مادلين؟

تضحك سمر:

هل تمزح؟ ألا تعرف القصّة؟ إنّك كبير وتبدو واعيا!

شعر الجوكر بإحراج...

سمر، جوكر بالكاد تعلّم العربية قليلا وأمريكا بارعة في منع أخبار العرب من الوصول، فلا تستغربي ربّما كان غوغل منصفا ورحيما أن ترك القصّة كما هي، لا بأس أخبريه القصّة.

حسنا، بدأنا نودّع المدينة وبعد ساعات سنبتعد عن البلد.

أعتمد على مريم وحسن، هما أصدقاء لي من أيّام الجامعة. حسن فلسطينيّ كان يدرس بالجزائر في القطب الجامعي الذي كنّا ندرس فيه أنا ومريم تخصّص هندسة، بينما درس حسن الصحافة. التقينا صدفة بالمكتبة الرئيسيّة، وهناك تعرّفنا على حسن. كنّا ننظّم مسابقات ثقافيّة معا وأخرى دينيّة ووطنيّة تخصّ البلدين، شاءت الأقدار السعيدة بعدها أن تتزوّج مريم من حسن، وانتقل حسن إلى فلسطين وتحديدا «جباليا» أين يقطن أهله لأن معظم أهله يسكنون «بيت لحم «و»غزّة «، فاستقرت مريم وحسن هناك ورزقا بولد بهيّ الطلعة سموه «محمد الأمين» كنت لازلت أتواصل معها على الوات ساب، ولمّا ساءت حالة البلاد كنت أشكو لها دوما الوضع بالجزائر، وكنت أحسدها أنها ذهبت إلى فلسطين.

وقالت لي بمزحة: «لم لا تأتين لزيارتي؟».

هـا أنـا اليـوم أزورهـا فـي وضـع لـم أتخيلـه، وقـد مـات أهـل زوجهـا جميعـا تحـت القصـف ووحشـيّة الاحتـلال وقصـف منزلهـم وهـم اليـوم نازحـون يعانـون ويـلات القصـف والحصـار، كانـت مريـم رفيقتـي و صاحبّـة فكـرة بدايـة بنـاء اليوتوبيـا أيضـا فـي غـزّة الجريحـة.

أعـود إلـى سـمر، بـدأت لتـروي قصّـة «مادليـن كلاب» للجوكـر، وكان حتـى الشـيخ أحمـد أوّل مـرّة يسـمع فيهـا القصّـة وأنـا أعـرف القليـل، إذا سـمر متفوقـة علينـا جميعـا، ربّمـا لـو أخرجـت «ميسـون» معـي أيضـا لـكان أفضـل. لأنـي أفكـر بالمكـوث فـي غـزّة «يوتوبيتـي الجديـدة».

الجوكـر ينصـت بـكل اهتمـام والشـيخ أحمـد يذكرنـي بالمؤونـة ويتفقّـد كل شـيء حتـى لا ننسـى أغراضنـا الطريـق طويـل ووعـر.

تقول سمر:

«مادليـن كلاب» هـي أوّل صيـادة فلسـطينيّة للسّـمك فـي غـزّة، وكيـف أصبحـت رمـزا للنّضـال والسّـلام مـن خـلال سـفينة تحمـل اسـمها؟

مادليـن كلاب فلسـطينية مـن حـيّ الصيادين فـي غـزّة، بـدأت ممارسـة الصيـد وهـي لـم تتجـاوز السّـابعة مـن عمرهـا. تعلّمـت الصيـد مـن والدهـا، عندمـا مـرض والدهـا وهـي فـي الثالثـة عشـرة، تحمّلت مسـؤولية الصيـد لإعالـة أسـرتها، رغـم المجتمعـات التـي كانـت تقتصـر فيهـا مهنـة الصيـد علـى الرّجـال فقـط.

واجهـت مصاعـب الطّقـس، ضيـق البحـر، والحصـار البحـريّ ورغـم ذلـك، أصبحـت شـخصيّة مقاومـة مدنيّـة مفعمـة بالكرامـة والقـوّة.

بعدها أصبحت مادلين مثالا للخير والأمل، كما أصبحت شعارا لسفن مساعدة مثل «سفينة الأمل والإنسانية»:

في أوائل يونيو 2025م أبحرت سفينة مساعدات إنسانيّة في إطار أسطول الحريّة نحو غزّة، وسُمّيت ب»مادلين» تكريما لها ولرصيدها في النضال الصّامت، السفينة كانت تحمل مساعدات طبيّة وغذائيّة للأطفال، أدوات طبيّة وغيرها، ورسالة احتجاج سلميّة ضدّ الحصار المفروض على القطاع، رغم أن السفينة لم تصل وجهتها إلا أن تحطيمها واحتجاز طاقمها من قبل البحرية الإسرائيليّة زاد من رمزيّة القضيّة ومدى قوّة التكاتف الدولي فيها.

هي قصة صمود وتحدّ
أخذت سمر تحكي.
مادلين كانت مثالا لقوّة وصمود يشبه صمود غزّة الآن، رأتها رمزا للنّضال الصّادق الحي رغم أن الجسد هزيل والسّلاح قليل لكن الفكرة عظيمة متّقدة لا تموت، ولا يمكن هزمها. هذه الرّحلة في كل خطواتها ستحقّق ما حلمنا به جميعا، ولن أنسى الأمل الذي وضعه فوق كتفي الرايس الذي كان يحبّ فلسطين ظالمة أو مظلومة، سأبني ما تبقّى من كلماته من نواياه ومن صدقه، سأبدأ رحلة لن تنتهي بسهولة.

انطلقت السيّارة إلى مدينة المقاومة، إلى أين سأواجه الحقيقة بكل ما أوتيت من كلمات.

اقتربنا من تونس بعد رحلة طويلة، بعد أن تركت ولايتي الجميلة سوق أهراس وبعد أن كنّا نتوقّف مرارا، إننا نقترب ينظر خالد ويتحدّث إلى الجوكر:

ما رأيك أن نبيت هنا الليلة؟

كيف؟

سنتوقف فقط بالسيارة ونخيم في مكان آمن، لدي أصدقاء هنا في سوسة أعرفهم، يمكنني الاتصال بهم.

يردّ الشيخ أحمد رفقة الجوكر:

لا يجب لفت الأنظار يا بنيّ.

يومئ خالد برأسه:

أي نعم.

فرحبّنا جميعنا بفكرة التخييم بمكان بعيد عن الأنظار.

توقفنا، بدأ الغروب يقترب... اخترنا مكانا آمنا في مدينة سوسة اعتمدنا على خالد لأنه يعرف المدينة جيدا.

نزلنا، توضأنا لنتجهّز لصلاة المغرب، صلّينا ثم أخذت وسمر نجهّز العشاء فوق غاز النزهة المحمول قليلا من البطاطا المقليّة والبيض والطماطم مع الفلفل الحلو والثوم؛ لأن جوكر يحبّ هذه الأكلة كثيرا.

وفي الأخير الطّعام نعمة يجب أن نحمد الله عليها ومهما يكن في هذه الرّحلة لا يهم ملء البطون أكثر ممّا تهمّ الأهداف المسطّرة، وملء

بطـون الغزاوييـن الخاويـة.

جهّزنـا العشـاء، تنـاول الجميـع حصّتـه وحمدنـا الله علـى هـذا الالتفـاف حـول النّعـم، سـمر تعبـت وتريـد أن تنـام، جهّـزت لهـا مكانـا مريحـا للنّـوم وأخـذت أحكـي لهـا عـن أحلامنـا فـي غـزّة عـن قصّـة اليوتوبيـا الجميلـة.

اقتـرب منـي الجوكـر بعـد أن تـرك الشـيخ أحمـد يـدوّن بعـض الأمـور فـي دفتـره ويخطّـط رفقة الشّـباب.

جلس بجانبي، يبدو مشوّشا بعض الشّيء، سألته قبل أن نأتي:

هل ودّعت قبر هارلي؟ ربّما لن تراه مرّة أخرى.

لا، لم أودّعها سنلتقي يوما ما.

مـاذا عسـى أهـل غـزّة أن يفعلـوا أمـام مصابهـم، لقـد فقـدوا كلّ شـيء، أمّـا أنـا فقـد فقـدت هارلـي حبّـا جميـلا فقـط.

سألتقيها يوما ما في الجنّة.

مروى؟

نعم جوكر، هل يدخل المهرّجون أمثالي الجنّة؟

جوكر: ما هذا السؤال الآن؟

وهل أنت مهرّج؟

أريد أن أسألك، هل يعاقبنا الله على الماضي وزلاته وأخطائه؟

جوكر: لا أعلم لم أفكّر هكذا، لكن رحمة الله بلغت كل شيء ووسعته.

يكفـي أنـك دخلـت الإسـلام وأقلعـت عـن الفوضـى والدّمـار وحـبّ أمريـكا وعفـوت عـن باتمـان وبـروس وسـكان مدينـة غوثـام.

يتنهد: نعم، أنت محقّة سأحاول أن أثق بنفسي من جديد.

نعم جوكر، كما ستثق بنا غزّة وكما وثق بنا الرايس.

مروى.

نعم.

جوكر: هل تسمحين بوضع المساحيق بغزّة؟

جوكر أنت حرّ فيما تفعله، لماذا تريد وضعها؟

لا أحبّ أن أقاتل أمريكا والصهيون بوجهي الذي اشتريته منكم وجه السّلام والحبّ.

جوكر سنقاتلهم ونوصل صوتهم وننقذ غزّة بوجوهنا الحقيقيّة، بأصواتنا وحقيقتنا كما هي، لا داعي للتبرّج والسّفور، لا يجب أن نشبههم.

أنت محقّة دوما.

بالمناسبة مروى...

يقاطعنا الشيخ أحمد: «حاولا أن تناما باكرا سننطلق باكرا».

نعم، على الرّحبّ والسّعة.

جوكر ينظر لي كأنه يريد أن يتحدّث كثيرا.

ماذا تريد أن تقول جوكر؟

وعدنا جميع الذين قرؤوا لنا والذين يستمعون هنا داخل اليوتوبيا، وحتى في حضرة الجوكر سابقا أن تكون الشفافية لغتنا والدقّة هدفنا والصراحة أداتنا الوحيدة.

ماذا تقصد؟

لنكن واضحين، ولنعلمهم ببعض التعليمات حتى يشاركوا معنا في هذه الرّحلة، هم أيضا متطوعون ومشاركون حتى ولو كانوا خارج هذا الكتاب، لكنّهم داخل نيّة واحدة وهدف واحد.

حسنا، سأكتب إليهم:

النيّة: بناء يوتوبيا

المكان: البلاد سابقا ثمّ تغيّر ليصبح غزّة

الظروف: مواتية ومناسبة جدا في غزّة، أكثر من أي مكان

الهدف: مسخ يجب محوه والقضاء عليه

الغاية: نبيلة جدا، كنيّة الجهاد الصادق في الغزوات.

الوسيلة: سيارات وبعض المعدّات الضروريّة، وكثير من الأمل والإخلاص وشيء قليل يشبه الخوف من الموت

الأشخاص: علي؛ شاب في أوائل العشرينات من عمره، ينتمي إلى قرية لالة فاطمة نسومر يعمل في الزراعة مع أسرته، لكنه يشعر بقيد الواقع الذي يكبّله. علي يحلم كباقي الشّباب بمستقبل زاهر في البلاد يمكّنه من أن يكمل دراسته ويصبح مهندسا زراعيّا يساعد قريته على التطور وبلده، لكنه يواجه مثلنا عوائق مثل الفقر ونقص فرص العمل، لكنه نبيل جدا وشجاع وطموح يحبّ المجازفة.

خالد:

صديق علي منذ الطفولة، يتميز بروح الفكاهة والقوّة، يبلغ من العمر حوالي 25سنة ويعمل نجارا بسيطا في القرية. خالد يحمل عبء

أسرته خاصة بعد أن فقد والده بسبب السّرطان، رغم أنه يضحك ومرح إلا أنه يحمل همّ إعالة أسرته، خالد أسير للخوف من الفقر والاحتياج، الرّحلة تمثل له فرصة ذهبيّة جديدة للبحث عن نفسه من جديد، وربّما سينتقل كي يعيش في غزّة في ظل اليوتوبيا الجديدة حيث سنبني عالما لا تتدخل به أمريكا ولا تخضعنا كحالنا في البلاد.
جوكر ومروى أغنياء عن التعريف.
سمر فتاة صغيرة من نفس القرية التي يعيش بها خالد وعلي، من أسرة بسيطة، والدها فلاح وأمّها تبيع الملابس التي تنسجها بيدها إلى أن توفي والدها بسكتة قلبيّة في حقل الطماطم، لتصبح يتيمة رفقة أخيها الصغير «باسم».
الشيخ أحمد رجل سبق وأن تحدثت عنه أيضا.
هل اتضحت الطّريق؟
بقيت أطراف مساعدة، نعم مريم وحسن أصدقائي هم أيضا على استعداد لاستقبالنا بغزّة، لقد نظموا دخولنا لغزّة من مصر بطريقة لا يمكن الإفصاح عنها هنا.
البلاد ستفهمني لأنها خبيرة في هكذا أمور، جوكر تعلم ويعلمون أني على تواصل مع مريم حتى نضمن الدخول لغزّة بعون الله وكل الترتيبات هناك قامت بهم رفقة زوجها وقليل من المعارف.
إلى هنا أظنّ أن الرؤية اتضحت.
تهيأ الشيخ أحمد للنوم، وتلفّت إلينا قائلا: الرّحلة طويلة وصعبة، سنواجه التفتيش ونمرّ بصحراء قاحلة، لكن خلفها تكمن اليوتوبيا التي سنحرّرها من النّظام الفاسد.

تعبت، ذهبت للنوم وكذلك الجوكر.
كنت أفكّر حتى أخذني النوم بعيدا.
استيقظنا على صوت الأذان القادم من مسجد صغير قرب موقعنا، كان الهواء باردا كأنه يزودني بالقوّة والصلابة.
يلفحني ببطء ويحمل معه رائحة الأرض التونسيّة الطيبة التي تشبه رائحة البلاد، استيقظ الشيخ أحمد وأخذ يوقظهم واحدا تلو الآخر حتى يؤمنا جميعا للصّلاة فشعرنا بارتياح كبير، بروح جديدة وبفرحة كبيرة وثقة بالله كبيرة جدا.
بعد الانتهاء من الصّلاة ذهبت مع سمر لإعداد الفطور فأحبّت سمر إعداده، هي فتاة مغرمة بالجمال والأناقة والطبخ الجميل المرتّب مثلي وتحبّ الطاولة الجميلة والألوان الحلوة، أعدّت بيضا لطيفا مع أوراق حبّق كانت في علبتي لأني أعشق هذه الأعشاب، وخبزا أسمر بزيت زيتون وزعتر، ذكرتني بالفطور الفلسطيني وقهوة طازجة مليئة بالحبّ يدغدغ عبيرها الأحلام والحكايات السعيدة.
تجمّعنا حول الفطور، وقرّرت أن أتناول الفطور رفقة سمر فقط.
سمر سألت الشيخ أحمد: هل نحمل ما يكفي من طعام ووقود؟
أجابها: نعم يا بنيتي، قسمناها بذكاء، الماء قد يكون أكبر عائق وتحدّ، فخبأت منه الكثير في الباب العلويّ وفوق سقف السيارة.
أخرجت سمر دفترا صغيرا وبدأت تدوّن بداية الرحلة وتقول لي دائما ما تكتبين شيئا يستحقّ أن يخرج للعالم وأن يقرأ.
سأل خالد وعلي، الشيخ أحمد: كيف سيكون برنامج الرحلة؟

فأجابهم:

الانطلاق من موقع التخييم الآن مع الفجر نحو الجنوب التونسي، ثم المرور على مدينة مدنين للتزوّد بالوقود وحتى الماء والطّعام وأخذ استراحة، ثم الوصول إلى معبر رأس جدير الحدودي مع ليبيا مع تحضير أوراق السّفر المزوّرة التي نسّقها الجوكر ومروى، ثم اختراق ليبيا عبر الطريق السّاحلي، ثم التحوّل إلى الطرق الداخليّة لتفادي الحواجز الأمنيّة رغم الصعوبة والخطر.

ثم الوصول إلى الحدود المصرية الليبيّة خلال الليل طبعا، ثم التسلّل نحو العريش تحت تغطية من إحدى الجماعات المتعاونة مع الشيخ أحمد، من العريش إلى رفح، ثم إلى غزّة عبر أحد الأنفاق التي تتّسع حتى لسياراتنا بمساعدة حسن ومعارفه.

جوكر يجبرني أن أضع الفواصل كعادتي حتى لا يتعب قرّائي لكن أخبرته أنّه سيأتي وقتها، لا تقلق.

انطلقنا وطال المسير وبدأ يظهر التعب مرّة أخرى، وصلنا إلى مدنين قبيل الظهر مدينة مشمسة يلفّها الغبار الكثيف والهدوء، توقّفنا في سوق شعبي قديم تملأه روائح الخبز اللذيذ ورائحة زيت الزيتون، نعم مدن المغرب العربي كلّها متشابهة عراقة ورائحة وطيبا لهذا لازلت أشعر أني بخير.

ارتدى الجوكر نظارات شمسيّة، آخر ما أتوقّع حدوثه أن يكتشفوا أنه من أمريكا العدوّة، ولن يفهموا حتى ولو برّرت لهم، وأخفى ملامحه تحت اللباس الذي حملته معي قصد تمويهه وتغطية وجهه. تولّى

الشيخ أحمد الحديث مع بعض رجال السوق وكان هاتفه وهاتفي لم يتوقفا خلال الطريق أبدا حتى ننظم دخولنا.

تبادلا السّلام، ثم همس أحدهم:

«أأنتم الذاهبون».

أومأ له برأسه نعم دون أن يتكلّم وأشار الرّجل إلى باب خلفي صغير يؤدي إلى منزل طيني متهالك.

دخلنا تباعا وهناك وجدنا امرأة مسنّة تدعى خالتي زهرة، عرفت الشيخ أحمد منذ أن كان تاجرا يأتي لليبيا وعندما رأته بكت.

قالت له: «ظننتك لن تعود».

قدمت لنا طعاما بسيطا كسكسي بالقديد وشاي خوخ جلسنا نأكل بشهيّة.

ضحك خالد وقال: « هذا أطيب من طعام مبروكة، يقصد أمّه».

نظرت إليه وقلت: «لو تسمع خالتي مبروكة تقتلك».

ثم جلست بجانب سمر حفيدة زهرة من ابنتها تدعى «فضول» عمرها عشر سنوات، تنظر بدهشة إلى وجه سمر الجميل ودفترها لأنّها كانت تخلد كل لحظة، وقالت لها: «أتكتبين؟».

أجابت: «نعم».

وماذا تكتبين؟

كل اللحظات الجميلة في الطريق لتصبح جزءا من ملحمة عظيمة نرويها لأطفال الغد من فلسطين والعالم.

قالت فضول: «ليتني معكم».

في هذا البيت رتّب الشيخ أحمد مع معارفه في الجنوب من يأخذنا إلى رأس جدير ليلا بعيدا عن عيون الأمن.
وفي المساء جلسنا في حوش خالتي زهرة نراقب غروب الشمس بين النّخيل، حين قال الشيخ أحمد: «نحن نقترب من الحافّة... بعد رأس جدير كل خطوة لها ثمن».

مدنين ليست مدينة عبور فقط؛ بل هي نقطة تحوّل وتغيير أين سنودّع الخوف.
كانت ليلة ساكنة والنجوم التي تراقبنا بصمت، جلسنا على الحصير في فناء ترابيّ صغير تنبعث منه رائحة التراب المبتلّ. أشعلت خالتي زهرة التي تعيش وحدها رفقة حفيدتها التي تؤنس وحشتها مصباحا زيتيّا خافت الضوء وغطّت السيارات بزرابي حتى تختفي عن الأنظار، قال الشيخ أحمد قبل أن نعبر: فلينطق كل واحد منكم بما في قلبه، فكما تعلمون لا ندري ماذا تخبئ هذه الرّحلة لنا.
سكت الجميع.
كانت سمر تحدق في السّماء، ثم قالت: «أنا خائفة ليس من الطريق بل من الرجوع منهزمة خائبة».
هزّ علي رأسه وقال بصوت يرتجف:» أنا لا أريد العودة مهما كان».
ضحك خالد وقال ليخفّف من التوتر الذي ساد: «أنا فقط أخاف أن أفقد أحدكم».

نظـرت إلــى الجميـع وأخبرتهـم أنــي خائفـة مـن نفســي فأنــا استشـطت غضبـا خلـف شاشـة الهاتـف، فمـا بالـك أمامــي أخـاف ألا أتقيّـد بالخطّـة وأفصـل أعناقهـم جميعـا دون أدنــى تخطيـط».

اقترب مني الجوكر وقال:

«أنت من علّمتني القوّة وأن مصدرها الله».

ثـم نظـر للجميـع: إمـا أن نسـترجع غـزّة وتاريخهـا ونجعلهـم يعيشـون الحيـاة التــي يسـتحقونها أو ندفـن معهـم أفضـل».

رأس جدير: على باب النار وفيصل الأفق

«في غزّة لا نبحث عن الحياة... نبحث عن كرامة وسط الحياة».

«كل قذيفة تسقط في غزّة تزرع في وعي هذا العالم النائم».

«الجوكر في غزّة لا يضحك بل يرسم البسمة على الأطفال بدموعه».

«في غزّة حتى الصّمت له ظل ثقيل ويقاوم».

«غزّة لا تنكسر ـ تجرح لكنّها لا تموت». محمود درويش

«فــي غـزّة يكتبـون أسـماء الشّـهداء علــى جـدران الزّمــن لا علــى الشــواهد».

«غزّة لا تموت لأنّها فكرة وليست مدينة، والفكرة لا تموت».

في غزّة لا تشرق الشّمس بل تنتزع من بين الغيوم قوّة، في المدينة التي صار الحلم فيها عملا مسلّحا سنجتمع: سمر ابنة الأرض وجوكر الذي ضاع اسمه بين العدالة والسّجن واتهام العمدة ومطاردة باتمان والشيخ أحمد حامل الحكمة وخالد وعلي لنؤمن بدستور الرّصاص ولغة المعاناة ورائحة الدّم والخوف ومنظر الأشلاء والاستشهاد فوق كيس الطّحين غدرا.

في ذلك اليوم الذي قرّرت والجوكر تحت شجرة الزيتون أن نموت لتولد الأحلام الجميلة، ليولد المزيد من الأطفال ولنكتب قصة جديدة ليوتوبيا جديدة أرادت أن تستيقظ تحت الأنقاض والدّمار والصّرخات، وآخر صرخة أسقطت خوفي ونهضت بقوّتي.
أنا جائع أريد أن آكل.

ستولد اليوتوبيا ويختفي الخراب بدءا من كلمة أنا جائع ومات وهو يجلب الطحين، ويا يمّا كلهم ماتوا تحت القصف وروح الرّوح وخالد نبهان روح الروح التي وددت أن أقف عند قبرها وطارق وأطلب منها اعتذارا وخالد الذي ارتقى وهو لم يسامحنا.
وصلنا رأس جدير، وكان الحرس الليبيون يتبادلون الشاي والمكسرات يراقبوننا بنظرات منزعجة، ترجّل الجوكر من العربة رفع يديه كأنه يقدّم عرض سلام، قال بلهجة أمريكية ثقيلة:

”We are here for being human“

خاطبتـه مستدركة الموقـف، صحـت فيـه: جوكـر، تحـدّث اللّغـة العربيـة كمـا اتفقنـا، اللهجـة الأمريكيّـة تربكهـم أكثـر.

"نريد أن نمرّ كي يتحقّق العدل".

حـدّق فيـه الضّابـط طويـلا، ثـم التفـت إلـى زملائـه، عـاد إلـى الجوكـر مجـدّدا وأشـار لنـا بالدخـول وكأنـه يقـول فـي نفسـه: مجانيـن.

دخلنـا الأراضـي الليبيـة والرّمـال تمتـدّ إلـى مـا لا نهايـة، سـمر تمـدّ رأسـها مـن نافـذة العربـة وتقـول: " تمامـا كمـا كنـت تتوقعينهـا يـا مـروى، صحـراء قاحلـة يخيّـم عليهـا الشـحوب".

كان الجوكـر فـي المقعـد الأمامـي وانطلـق الشـيخ أحمـد بسـرعة، كنـت لأقتـرح علـى الجوكـر أن يقـود مكانـه، هـو شـيخ كبيـر وواضـح أنـه تعـب.

يبدو أن خالد مناسب أكثر للسياقة.

قـال علـي: " لـو أخذنـا طريـق السّـاحل، كنّـا لنقـع فـي مطبّـات كبيـرة ومراقبـة شـديدة... الأفضـل أن نقطـع الجنـوب ولكنهـا طويلـة".

قالت سمر: " ومصر؟ كيف سنتفاهم مع ضبّاطها؟».

ردّ عليهـا الشـيخ أحمـد متفائـلا بقـوّة وإرادة الله عـزّ وجـلّ: "الـذي أذن لنـا سـبحانه بالرّحيـل والخـروج مـن البـلاد نفسـه سـيجعل لنـا طريقـا ولـو كانـت فـي البحـر".

قلنا جميع: "سبحانه".

متأكدة أن رحلة يملؤها اليقين، لن تفشل وجهتها ولن يخيب أملنا.

بعد تعب كبير وتوقّف مستمرّ لنرتاح، قرّرنا الاستراحة ليلا في مدينة سرت حتى نصل غدا إلى معبر السلوم.

خيمنا هناك وقرّرت بعد صلاة العشاء أن أجلس وأتأمّل قليلا السماء رائعة جدّا والهدوء، أتمنى أن يكون هدوءا يمهّد لحرب ننتصر فيها أو على الأقل كفاحا يسكت الضمائر ويحقن الدّماء قليلا.

بعد قليل أخذ الجميع يستعدّون للنّوم، غدا أمامنا يوم طويل بل وأيّام طوال قدّرنا الله عليها وأعاننا.

لكن جوكر بدا كأنه يريد أن يجلس إلى جانبي، ويتأمل معي أو يتحدث من يدري؟

السّلام عليكم.

وعليكم والسّلام.

جوكر، لماذا لم تنم مثل البقيّة؟ لا زالت الطريق طويلة.

مروى، هل تذكرين كيف التقينا؟

نعم جوكر، صدفة رائعة، كنت أبحث فيها عمّن يساعدني في تغيير حال البلاد وربّما حتى تغيير مواطنيها إن لزم الأمر.

فجأة ظهرت أمامي كمواطن صالح يبدو عليه الشرّ بسبب تلك المساحيق.

أنا أيضا لم أكن لأتخيّل أني سآتي للبلاد بحثا عن مكان أفضل من غوثام ومطاردة باتمان لي وخادمه بروس.

أخيرا تركت أمريكا وكل ما فيها... لكن...

تغيب الكلمات وتتحفّظ مشاعر الجوكر، ويلتفّ حول نفسه وجعل رأسه إلى ركبتيه وبدا وكأن بعض الدموع تتسرّب من عيونه.
وضعت يدي على كتفه.
سألته: "ما بك، أم أنك تذكّرت هارلي والأصدقاء؟".
نعم، هارلي صديقة عزيزة جدا وصديقي الأخضر.
جوكر يمكنك الانتقام من كل الذين حرموك نفسك وراحتك وأحبّتك أو حتى الذين كتبوا عنك سيناريو الشرير في الأفلام والكرتون.
جوكر لم يفت الأوان، دوما يمكننا الوصول حتى ولو كنّا متأخرين.
نعم، أنت محقّة.
الانتقام الجيّد هو مغادرة أمريكا والبلاد.
وأجمل ما يمكن أن أقدّمه لأصدقائي هو أن أصبح أفضل نسخة من نفسي القديمة.
أخذنا الحديث طويلا، السّاعة قاربت الواحدة صباحا، جوكر يجب أن ننام ولو قليلا.
قبل أن نستيقظ لصلاة الصبح والانطلاق.
أعتذر أنا من أطال ليلك وسهّرك، لا أبدا الجلوس معك فلسفة ممتعة ونبش جميل في الماضي والذكريات التي تركناها وراءنا.
جوكر أطفئ النّار ولنذهب للنوم.
جوكر تذكر أننا هنا لنثبت أننا نستحق أفضل من تلك الحياة بالبلاد أين لا مأوى لطموحاتنا وأحلامنا.. أين يُعدم الصّالحون ويباد الرأي المستنير ويهمّش القرآن وتعاب اللّغة العربيّة.

كم أردت أن أجعلهم يحملون كره خرنسا للممات، كم أردت أن أغيّر نظرتهم للمعلّم والطبيب والمثقّف بشكل عامّ.

أتتذكر عندما سألتني ماذا سنحمل لغزّة من البلاد؟

فأجبتك إلى جانب المساعدات سنحمل إطاراتنا وأطباءنا ومهندسينا وكلّ الحاملين لشهاداتهم كي يخدموا غزّة، حتى وإن ماتوا فمأواهم الجنّة ونعم المصير.

ما فائدة أن يظلوا بالبلاد.. لا عمل ولا هدف ولا فائدة ترجى من الحياة.

جوكر البلاد تفيض كفاءات تحتاجها بلاد كغزّة حاليا..

هناك طبيبة صديقة لي تطوعت هي الأخرى لتأتي رفقة المترجم عمار وهي نور الهدى بولعراس، نعم تذكرتها قالت أنّها سترتب أمورها وتلتحق سأدبّر دخولها لغزّة لاحقا.

تلك الفتاة لديها وعي كبير وتعلم أن كل ما في البلاد مزيف حتى الوطنيّة والتحيّة والسّلام.

لم تعد تصدّق شيئا سوى القرآن الذي تحفظه.

هل تحفظ القرآن؟

نعم، لماذا؟

كم تمنيت أن أجرّب حفظ بعض السور ريثما أتقن اللّغة جيدا.. نعم جوكر هنيئا لها هذا التيسير، أنا أيضا أتمنّى أن أحمل كتاب الله في صدري فعلا وقولا.

كيف؟

من الصعب يا جوكر أن يكون القرآن حجّة علينا لا لنا.

ما معناه؟

جوكر سأخبرك لاحقا، سأذهب للنوم تعبت حقّا.

ربما ستصير إماما بغزّة وحينها سنحفظ معا القرآن وسنحفظه للنشء الصّغير، قل آمين.

آمين... آمين.

بعد غفوة صغيرة استيقظنا جميعنا، السّاعة تشير إلى الرّابعة صباحا، صلّينا وتناول الجميع قهوته التي أعطاها الحطب طعما مميزا وكأنها قهوة دمشقيّة تتدلّل بين أيدينا.

وضبنا أغراضنا بسرعة وانطلقنا متوكلين على الله.

سمر تبدو غير مكتفية من النوم، هي تضع رأسها فوق فخذي.

كأنها تريد أن تسرق مزيدا من النوم.

ابتسم الجوكر وقال: "دعيها تنام لا تزال صغيرة ولا تقوى على السير الطويل وتعب الطريق، تحتاج أن تنام ".

قطعنا أميالا من الصحاري والغبار والحرارة، كنّا نتوقف لشرب المياه وتبريد العربة، أخذنا استراحة خفيفة وأكلنا ما يسدّ الجوع وواصلنا الطريق.

مشينا كثيرا حتى ملّت سمر وبدأ خالد وعلي بالتعليق: " لن نخرج من جحيم الصحراء حتى نصبح دجاجا محمّرا".

ههه، دجاج إذن سنأكلكم على العشاء.

ضحكت سمر والجوكر، ثم علق الجوكر وقال: " بلدان المغرب العربي عدا البلاد (الجزاير) كلّها صحاري تسدّ الشهيّة في الحياة.

أمضينا يومين حتى نتجاوز ليبيا بين نقاط تفتيش لا تنتهي وبين دروب تخفي القذائف تحت الرّمال، كنت خائفة من المكوث الطويل بليبيا لأن البلاد ليست بخير منذ ذلك الانقلاب، حيث أصبحت تسيّرها جماعات مسلّحة مخيفة.

سمر تكتب في دفترها الصغير، يبدو أنها وثّقت كل خطوات الرّحلة المقدّسة.

وصلنا إلى معبر السلوم أخيرا عند المغيب، كان المكان محاطا بجدران إسمنتيّة، وأسلاك شائكة، وكاميرات تراقب حتى أنفاس الأرض وجبين السماء، أمامنا طابور كبير من الشّاحنات والسيّارات.. تقدّم الجوكر أولا.

وقف أمام الضابط المصري بابتسامته الجنونيّة ووجهه غير المألوف، وتعابيره الساخرة وقدّم جواز سفره الأمريكي، وقال: "مسافر إلى غزّة وبدعم من أمريكا".

ارتبك الضّابط وقال: "تتحدّث العربيّة؟ من أرسلك؟".

قال الجوكر: " لا يهمّك، تعرف ما تفعله؟".

ردّ ضابط آخر بحدّة: " أمريكي؟ جزائريون؟ وما دخلكم بغزّة؟».

يقهقه الجوكر ويبتسم الشيخ أحمد ويردان بسخرية: "يا أيّها الرّومي افتح لنا الطريق، وسنريك بعدها ما علاقتنا بغزّة".

طلب الضابط جوازات سفرنا، قلّبها الواحد تلو الآخر، بدت علامات التعجّب على وجهه.

قال ضابط آخر: "أمر العبور لا يقرّر هنا، انتظروا القرار من القاهرة».

كانت جملة ثقيلة جدا مثل مطرقة على رأس الوقت.

انتظرنا مدّة طويلة جدا حتى قدم إلينا الليل هادئا ومتئد الخطوات حتى يسلّم علينا ويبارك خطواتنا ويخبرنا أن نتشجّع، وقف خالد وعلي حتى ملّ الوقوف منهما. كان الشيخ أحمد يقرأ القرآن وسمر إلى جانبه تتكئ على كتفه خاشعة في القراءة هي الأخرى، أما أنا

فكنت أتأمل الجوكر وأراقب خطواته خوفا من أن يفقد أعصابه أو صبره لأني أحسّ أن جوكر القديم يريد الرجوع بقوّة، لأن الوضع يحتاج إلى الجوكر المتمرّد الغاضب الساخر.

بدأ الجوكر يتمتم: "إن لم تسمحوا لنا بالعبور سنحرق البلد وسنعبر».

يبدو أننا سنمضي الليلة هنا.

قال الشيخ أحمد: "فليكن ذلك، ما أتينا لنعود أدراجنا، إما أن نعبر أو نعبر».

تجمّعنا نتحدّث ونحن نبدي تحديا كبيرا، الضبّاط خائفون من الجوكر، فقد كان يرمقهم بنظرات مخيفة، نعم إنه مواطن أمريكي من الطبيعي أن يخافوا منه وسيلبّون أمره مهما طال الأمر فلا مجال للعب مع أمريكا.

أما عني فقد أخبرتهم أنني من عائلة الرايس هواري فذعر جميع الضبّاط.

وأخذ الليل يرفل مسرعا وكأنه لا يريد أن يطيل علينا العناء والانتظار.

الليلة كان الليل داعما جيدا سيلاقينا عن قريب بأخيه في غزّة لنرى جمال الليل فيها ونحوّله لنهار أجمل.

أمضينا ليلا كاملا نتحدّث ونقرأ القرآن دون خوف أو أدنى شكّ في أننا لن نعبر، في الأخير سيشاء الله وهو ربّ العالمين.

وفي الصباح الذي أتى مسرعا.
جاء الجواب.
"العبور ممكن... ولكن بشروط وموافقة أمنيّة خاصة وشخصكم غير المعتاد».
أحسست وكأننا نتحدّث إلى اليهود قبل أن نلتقيهم، لم أحسّ أن هناك رابط عروبة أو إسلام في هؤلاء؟

هل الحدود خطيرة إلى هذه الدرجة؟
هل هيبة البلاد وقوّتها تتمثّل في أكل الضعيف ومساعدة العدو حتى يأكل السماء والأرض ويشرب نهر النيل بأكمله؟
تدخّلت هذه المرّة وتقدمت نحو الضبّاط، يحاول الجوكر إرجاعي للخلف.
قلت لهم: "عندما نبني ما نريد سنجعل سورا كسور بأجوج وماجوج وسدا عظيما يفصلنا عمّن يشبهونكم".
سكت الضابط وقال: "اذهبوا إلى صالة الانتظار... حتى نرى ما يمكن فعله".
ينظر لي جوكر باستشاطة وكأن الحدود تختبرنا وتزيد من ضغطنا لكن لا بأس، ما هي إلا لحظات وسنمر... أشمّ رائحة غزّة.

صوت الباب الحديدي ينفتح ببطء.. كأنه لا يريد أن يفتح.

الضابط قادم وهو يحمل أوراقا ويقول دون أن يلتفت إلينا: "تمّت الموافقة لكن مسموح لكم البقاء في مصر 72 ساعة فقط، وبعدها يجب أن تغادروا إلى غزّة مباشرة".

لم يبد أحد ردّ فعل فرحا فقط سمر ترقص وتغني..

هههه، ما أجمل الطفولة!

جوكر ينفجر ضاحكا ويقول: "أيّها الكلاب، أخيرا سنمر هاهاها".

جوكر ما بك؟

استجمع نفسك نحن على المحكّ هنا، وأي ردّ فعل سيعيدنا إلى الصّفر.

نعم، لكنها الفرحة ماذا عساي أفعل؟

كم أكره أمريكا، لكن بفضل الله والرعب الذي تبثّه داخل العرب سنمر.

نظرت إلى الجوكر نظرة استياء.

فسحبَ كلامه وأصلح سلوكاته، لا تتحدّث عن العرب مجدّدا جوكر أنا واحدة منهم شئت أم أبيت إن قمت بسبّهم فإنك تسبّني.

ولا تفتخر بأمريكا أمامي مجدّدا، اللّعنة عليها.

لم نعبر بفضل الخوف من أنك مواطن أمريكي فقط؛ بل لهواري هيبة كبيرة وتجعل الجميع يخاف اسمه حتى وهو ليس على قيد الحياة.

اكتفى الشيخ أحمد وخالد وعلي بالصّمت الذي يكسر جبروت الضبّاط.

سمر احتضنتني بقوّة وقالت: "أخيرا سنقترب من غزّة".
دخلنا مصر، كل شيء فيها حقيقي الأرض تشبه نفسها ولها رائحة حقيقيّة، السماء بدت وكأنها تحتضننا والأرض تمتدّ تحتنا تبارك خطواتنا لكن كان كل شيء تحت المراقبة: كاميرات مراقبة، عسكر أسلاك حتى الهواء والنوايا والأفكار.
قال خالد: "ماذا لو كانت الحدود كقلوبنا وقلوب أهل غزّة لكانت مفتوحة دائما».
الشيخ أحمد يتلو الذكر ويكبر بصوت خافت، سمر تدون هذه اللّحظة المهمّة.
جوكر متحمّس كثيرا، يقول لسمر نحن نقترب.
دخلنا العريش ثم طريق طويل نحو معبر رفح.. آخر محطّة.
الآن سنواجه أعظم مدخل وبوابة والفصل الصّادق في روايتنا.
الطريق إلى رفح كان صامتا يسوده الحماس ويلفّه الدعاء، سمر تطلّ من النافذة وتسأل متى تطلّ غزّة؟ متى أراها؟
ثم بدأ يلوح من بعيد معبر رفح.
رأيناه جميعا، أصابتنا قشعريرة ورهبة.
إنها أمامنا من غير تلفاز ولا شاشة ولا مراسل صحفي، سنعيش أخبارها وفيها بدل أن نتفرّج عليها.
نزلنا من العربة، البوابة الحديدية هناك، كبيرة سوداء ورماديّة يعلوها علم إخرائيل للأسف وعلم مصر، كنت لأسبّها لولا العلاقة الطيبة بين البلدين.

وأمامها جنود مصريون يحدّقون بشراسة.

سألنا أحد الجنود: "أين أوراق العبور؟».

قدمت إليه الأوراق والجوكر إلى جانبي، نظر الضابط طويلا وقال:

عجبا! مواطن أمريكي؟

انتظرنا لحظات ثم سمعنا صوت صرير الباب.

يا الله ياااا الله البوابة تفتح.

فتح للتوّ باب يطلّ على الطهر، على عالم يختلف عن عالمنا، باب ينجينا من شرّ أنفسنا إذا دخلناه، اللّهم لك الحمد، خرّ الجميع سجّدا وبكيا.

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

هذا توفيق من الله.

قال الجندي وهو يتقدّم نحونا: "مسموح لكم بالعبور".

ستبدأ اليوتوبيا من الآن.

وبعد أن يخنقك التعب وتتمكّن كل المخاوف والآمال في نفس اللحظة أن تخنقك وتحوّلك في دقائق إلى كومة من الصّبر الذي لا يجب أن ينفذ وأنت تفتح باب غزّة باب الجحيم الذي صنعه العرب قبل الغرب.

لم أصدّق أني وطأت أرض غزّة، بدأت أحسّ بطعم الحريّة الممزوج بالخيانة ورائحة الزيتون تبعث لكنّها مخلوطة برائحة الدّم والجثث كما لو أن الذئاب هي أوّل الوافدين لنا منذ أن وطأت أقدامنا غزّة.

ذهل الجوكر من حجم الخراب، حجم البيوت المحطّمة، كميّة الدّمار كل شيء رمادي. نظر إلينا وقال: أكبر من الدّمار الذي صنعه هتلر بأضعاف.

كنت أظنني نشرت الرعب بأمريكا وفيلم الجوكر وباتمان حتى وجدت أن فلسطين وغزّة أكثر دمارا من أي شيء مضى.

رأيت الشيخ أحمد وهو يبكي بشدّة ويقول: «اللّهم دمر من دمّرهم، اللّهم أذقه عذاب الجحيم».

سمر تسمّرت بمكانها، وقالت: هل أنتم متأكدون أننا سنقتلع كل هذا ونبني يوتوبيا الرّماد وبقايا الخراب؟

هل سنتمكن من دفن الشّهداء جميعا؟

هل سيغفر الله لنا التخاذل والخيبة؟

كلّمت مريم فقالت:» سأصل إليكم، دقائق فقط».

يا الله، المنظر أهول مما نقلته الصحافة!

ما إن مشيت قليلا حتى التقيت فتاة صغيرة ترتجف وتقول: أين أمّي؟

هل رأيتها؟

كنت سأقول لها أنا مجرّد وافدة تحطّمت ما إن رأت حالتكم ليتني فلسطينيّة، لم أشأ أن أتحدّث معها حتى لا تتعرّف على لهجتي الجزائريّة لأننا في مهمّة لا يجب أن يعلم أحد بها.

حملنا أغراضنا وتجمّعنا حول بعضنا، يبدو أن علي وخالد مذهولان من وضع غزّة، قال لي خالد: تذكّرت روح الروح وهي لا حياة ولا حركة والجدّ يشمّها ويحضنها.

وتذكرت أصواتهم وهم يردّدون أسماء المفقودين والشّهداء.

خشع علي من صوت الصّراخ والبكاء المرتجف، ونظر إليّ وقال: «مروى، البلاد أفضل بكثير الحمد لله على نعمة الأمن حتى دون طعام أو شراب».

آه يا علي، غزّة يدمّرها العدو والصهيوني، ولكن البلاد يدمّرها أبناؤها من لحمها ودمها.

المهم نحن أتينا إلى هنا حتى نفي بالوعد ونحقّق الحلم، وليس للتنديد بحالة البلاد.

اجتمعنا وقد ذبلت قلوبنا حزنا واحتضننا الألم بشدّة هناك وتمكّن من تقطيع أوصالنا وتبديد الآمال مؤقتا.

لأننا مجبورون ألا نخيّب أملهم ولا أمل هواري.

لكن يقاطعني أحمد لو تحدثنا إلى الرايس تبون لجاء معنا متأكد أنه لن يتركنا لوحدنا.

لو كان كذلك لماذا طردوك من القصر عندما كنت ستفجّرهم؟

هم من طردوني دون علمه، لست أدري لم يتصرفون بعيدا عنه أو لم يكن عليهم استشارته؟

لا يبدو ذلك فالرايس يتركونه للأمور التي لا يقدرون عليها أو حتى نقتنع أن الرايس هو من يصدر النواهي والأوامر، جوكر دعنا من البلاد وفوضاها، علينا بترتيب الوضع هنا.

اتصلت بي مريم هي قريبة.

ما إن أقفلت الخط حتى أطلّت مريم وحسن بعربة مهترئة بالكاد تسير، نزلت ورحبّت بي واحتضنتني كأنها غريب يعود إلى وطنه

وكأن الجزائـر احتضنتهـا هـي الأخـرى وقالـت: «أشـمّ فيـك ريحـة البـلاد».

أجبتها: «جميل، مازلت تتكلمين الجزائريّة».

نعم، أخلطها أحيانا باللّهجة الفلسطينيّة الجميلة.

كانـت ترتـدي ثوبـا فلسـطينيّا مطـرّزا بشـكل جميـل جـدا، بـدا كأنـه يحتفـل بعزيـز قـادم مـن الجنّـة.

حسن رحبّ بنا كثيرا وسأل عن أحوالنا وفرح برؤيتي.

وسـألني عـن البـلاد فأجبتـه: «بخيـر كمـا تركتهـا... كنـت لأقـول أسـوء ممّـا تركتهـا».

حمل حسن أغراضنا فوق العربة وانطلقنا جميعنا.

نحو وجهتنا والتي كانت بيت حسن.

سـألت مريـم كيـف يمكـن لنـا المكـوث بالبيـت، يلزمنـا مـكان أكثـر سـريّة وبعيـدا عـن الأنظـار حتـى لا يكشـف أمرنـا، الاحتـلال عدوانـيّ جـدا ولا يرحـم.

كما أن الجزائر ستصبح في مرمى الخطر إن اكتشفوا جنسياتنا.

الجوكر يبدو أنه لن يتضرّر لأنه مواطن أمريكي.

مـاذا؟ أجلبـت معـك مواطنـا مـن أمريـكا القـذرة التـي تتعاون مـع الصـهيون علـى القتـل والإبادة؟

انفجرت ملامح مريم غضبا وخوفا.

أين هو؟ قدّميه لنا على الفور.

إنـه ذلـك الـذي يرتـدي نظـارة وقبعـة ووجهـه بـه حـدّة وطـول خفيـف، صاحـبّ اللّبـاس الأحمـر والحـذاء الأحمـر الـذي يبـدو عليـه الصّمـت الثقيـل.

لكـن هـو مسـلم اعتنـق الديـن مؤخـرا وكنـت أنـا مـن أقنعـه، وهـو يصلـي مثلنـا ويصـوم لا تخافـي، يكـره أمريـكا أكثـر ممـا نكرهها.

أأنت متأكّدة؟

لقـد رأيتـه علـى التلفـاز فـي الأفـلام والكرتـون، لـم يكـن يومـا طيّبـا بـل كان الشـرير الغاضـب المدمّـر.

تذكّرت قول الجوكر...

why so serious!

هدئي من روعك.

أحيانـا يجـب أن نستسـلم للجنـون، للمغامـرة، للتجريـب ربّمـا يمكننـا فعـل مـا لا لـم نفعلـه بالعقـل، بالحكمـة، بالجديّـة المبالـغ فيهـا.

حسـن يقـود وبجانبـه كنـت ومريـم ووراءنـا سـمر والشـيخ أحمـد وعلـي وخالـد.

قال حسن: «من هذه الفتاة مروى؟».

إنها ابنتي.

هل تزوجت وأنجبت بهذه السّرعة؟

لا ليس بعد، لكنها بمثابة ابنتي هي أجمل بنات قرية «لالة فاطمة نسومر»... أحبّها جدّا.. فتاة طموحة حالمة لا تستهن بها يا حسن، ستكون خير حليفة وناصرة.

مشينا طويلا وما إن دخلنا أحد الأحياء حتى أخذ حسن يسرع، سألته لم قالت مريم الاحتلال يفتكّ بكل عربية تسير.

كان حسن ينطلق بسرعة ويقول: لا تتحدثوا التزموا الصّمت، أحسست أن سمر قويّة كالأرض التي غادرتها، رأيتها تتأمّل الغبار والخراب وعيناها تمتلئان حزنا ووصبا، تسألني كيف تمكّن أهل غزّة من الصمود، كيف كنّا نأكل ونشرب وننام وهم يتقطّعون إلى أشلاء، مروى، نعم. أسوء ما يمكنني تذكّره هو صورة خالد أمامي يحضن حفيدته ويبكي دما على فراقها، وما قطّع قلبي يوم استشهد قلت في نفسي لقد ذهب ليلتقي الأحبّة وفي جيبه حلق أذنها سترتديه معه في الجنّة. آلاف الأطفال تراقب يوميّا، لقد كنّا أكبر الخونة يا سمر، من المفروض نحن أوّل من يحسّ بهم... ليتني أبني هذه اليوتوبيا والرايس معي؛ أقصد هواري.

توقف حسن، لم أكن لأحسّ بالطريق صوت الألم والفقد المنبعث لولا حكايات سمر.

نزلنا، كنت أظنه بيتا مقصوفا مهشّما محطما، لكن البيت يبدو نفقا تحت الأرض. قام حسن خلال شهر ونصف ببنائه من بقايا منزله المقصوف، مع ثلّة من أصدقائه الناجين من هذه المجزرة حتى يتمكنوا من رصد العدو والابتعاد عن الغارات.

كنـا متعبيـن جـدا ومنهكـة قوانـا... كان الطريـق طويـلا قبـل أن نحـطّ الرحـال بغـزّة، أيـن سـينتهي كلّ الشّـتم والسـبّ واللّـوم، انتهـى زمـن الـكلام وسـيبدأ فصـل التنفيـذ.

الفصل الثاني: يوتوبيا الرّماد أفاقت

سـيبدأ فصـل متعـب لنـا جميعـا، لكنـه فصـل سـيجمع كل قـوّة فينـا، سـيثبت أننـا نكـره العـدو ووجـه، القنابـل وصـوت السـلاح ورائحـة الطفولـة المختنقـة.

جوكـر يبـدو عليـه إصـرار كبيـر، نظـر إلـيّ قائـلا: «هـي مهمتنـا أكثـر مـن الجميـع، لا تنسـي أننـا مـن بدأنـا التغييـر، مـن بـدأ الرّفـض، مـن رفـض الظلـم وسـبّ الرايـس ولعـن التاريـخ، نحـن كنّـا نبحـث ونفتّـش عـن شـيء ندين بـه المسـتعمر ونسـبّ ونلعـن بـه خرنسـا.

جوكـر البدايـات دومـا مـن أصعـب مـا يكـون، لكـن المشـكل الكبيـر فـي هـذا الأمـر هـو النّهايـة...

مـروى البـلاد تحتـاج كثيـرا مـن الصّـدق، تحتـاج أن تجـد رئيسـها الحقيقي حتـى تسـتقيم لأن عصـا الرّعـاع الخارجيّـة لـن تكـفّ عـن ضـرب الغلابـة والمحتاجيـن والمعاقيـن فكـرا ولغة ودينـا وإرادة.

لا يمكننـي أن أجـزم أنـه يمكننـا تغييـر خارطـة البـلاد هنـاك، فقصـر الرئاسـة نفسـه مفخّـخ، لـو فكّرنـا بدخولـه سـتنفجر المـدارس والقـرى وبيـوت الفقـراء والمسـاكين.

أنت محقّ جوكر، إذن لا بديل لنا عن غزّة وعن فلسطين، إنها بيتنا الثاني وأرضنا أيضا بناء اليوتوبيا هنا أو هناك قد يشكّل فرقا طفيفا. لم؟

غزّة أرض مازالت تحافظ على طهرها ورياسها لم يبايعوا الخبثاء والسفاحين حتى يضمنوا للمواطنين الخبز المضمخ برائحة الخيانة. غزّة الآن تصادر الرّسائل الزرقاء، ولا تستورد شيئا ولا تصدر شيئا سوى الكرامة التي فارقتنا ونحن على قيد الذلّ والهوان.

ولكننا مهزومون بالفطرة، منذ تزوجنا السكوت وطلّقنا النخوة عن تراض، أرضنا لا ينبت فيها شيء سوى بعض القمح رديء النوعية وبقايا علف حتى الحيوانات عزفت عنه.

البلاد امرأة عقيم منذ أن اغتالوا ذلك الولي الصالح هواري فمنذ ذلك اليوم لم تنحبّ رجل كاملا ولا امرأة تصلح أن تنجب مواطنا صالحا، صارت البلاد مليئة باليتامى، مليئة بالأفكار غير الشرعيّة التي قتل آباؤها وتركوها تبكي لا تجد من يرعاها.

لهذا أوصيت سمر أن تحمل معها ما تبقى من بذور الكرامة في البلاد، ما تبقى من ماضٍ عظيم داخل كل نبتة وبذرة كي لا تختنق في البلاد وتنمو بها حياة جديدة داخل غزّة.

في أول الأمر حسبته نفقا مظلما، لكن ما إن تقدّمنا حتى قال خالد: «من أجمل ما رأيت، كيف تحفرون الآمال بالآلام وتصنعون حريتكم بطريقتكم الخاصّة وتخنقون أنفاس العدوّ وتسبّون أفراحه؟».

ابتسم حسن وقال: «نحن أقوى مما تظن، الكلمة هنا بمئة سطر في خطبة العرب، والكلمة هنا أقوى من السلاح والمدفع، والأمل هنا وحبّ الله يكفينا كي نعيش دهرا كاملا.
وضعنا أغراضنا، كان وقت الظهيرة توضأنا وصلينا رفقة الشيخ أحمد، أعدّت مريم غداء بسيطا يتكون من صحن زيتون وخبز عربيّ على الصاج وبعض الزعتر والبيض المقلي.

سألتها والجوكر من أين تحصلون على الطعام؟
تنهّدت مريم وهي تنظر إلى محمّد طفلها بصعوبة بالغة.

أنهينا الصلاة تجمّعنا حول الأرض وقد أفرشنا بساطا أحضرته من البلاد ما يسمى بالزرقاطي، أحضرته هو بالذات حتى يقاوم معنا صعوبة الأيّام ويمنع أجسادنا الصغيرة عن غبار القنابل والقصف حتى يشهد هو الآخر على بناء اليوتوبيا.
بدأنا نأكل وما إن أنهينا حتى سمعنا صوت القصف، سارعنا إلى دخول نفق أعمق من الذي كنّا نجلس فيه، التراب يتساقط فوق رؤوسنا سمر صامدة وتقول للجميع: احذروا احموا رؤوسكم، نعم مثلما قال أحد الفلسطينيين لا فكرة لديكم عن الحياة التي نعيشها والتي تتفرجونها وراء التلفاز، أنتم غير قادرين حتى على المشاهدة فما بالكم نحن الذين نعيشها.

ارتعدت أوصالي وأدركت مع زئير القنابل أن العدوّ أشرس ممّا توقعت، رحمة الله على « السنوار»؛ ذلك الرّجل الذي كان موته هو الحافز الذي دفعني أن أختار البناء بعده.

لازالت الغارات تستمر.

جمعنا الأغراض كلّها في نفق شديد الامتداد إلى باطن الأرض.

يتمتم الجوكر: «يجب وضع خطّة فورية، لم نأت إلى هنا عبثا، الأمر صعب جدا يلزمنا ترتيب وتناسق، غزّة لن تبقى جريحة بعد الآن، لن نتراجع».

أكيد، هذا ما جئنا لأجله، ما فائدة أن نبقى بالبلد ونسبّ الرايس وأتباعه ونرسم صورة سيئة للبلد.

جوكر أتذكر ذلك الفنان الذي كسر كل لوحاته الجميلة حتى يشعل النّار ويطبخ...

هل هذا لا يكفي حتى نشعل ما تبقى من رماد المقاومة ونأكل الصهاينة أكل النّهم الجائع؟

كسر حديثنا صوت الصّرخات ونداء النّجدة...

قرّرت أن أخرج وإذ بي أرى الأطفال يسقطون أرضا والدّماء تتسرّب من تحت أجسادهم الصغيرة الغضة، الأمّهات يصرخن... الشّباب يهربون إلى كل نقطة نجدة وأمان...

من هول ما رأيت كنت سأدعوهم إلى منزلنا... حتى أوقفني الجوكر.. لا تتهوري مشروعنا يعتمد على سريّة الأمر.

لكن قلبي لا يحتمل...

أمسكت مريم يدي وقالت: «سنذهب غدا إلى أم محمد أم الشّهداء، تلك المرأة القويّة التي فقدت معظم أبنائها ولا زالت تقاوم».

وماذا سنفعل عندها ومن تكون؟

ألا تتابعينها على حساب الإنستغرام؟ هي تشاطر العالم كلّه معاناة الفلسطينيين.

وتصنع من بقايا الحطام والفقد أكلا وشرابا.

آه، تذكرت أنا أيضا أتابعها ومعجبة بها... إنها مثال طيب وقويّ، صورة عن غزّة، هي صورة الكرامة والقوّة.

ولماذا سنذهب عندها؟

ساعدتنا كثيرا في تنظيم هذا البناء، عملية انتزاع روح غزّة من بين أيدي العدو، كما أني أطمئن لها كثيرا.

ستعود فلسطين كما كانت حتى ولو كان آخر شيء نفعله.

لكن أعين العدو في كل مكان... هل الأمر يبدو سهلا إلى هذه الدرجة!

مروى نحن من بلد المليون ونصف مليون شهيد، لو اتحدنا سنصنع عالما من اليوتوبيا وليس استرجاع غزّة وأشجار الزيتون فقط.

نعم، اتفقنا.

أصوات الصّراخ في كل مكان... خرجت فجأة بعد أن قلّ صوت القنابل والهجوم. مشيت قليلا وكان خالد وعلي يناديان ويحذرانني من الخروج... مشيت قليلا حتى وجدت طفلة تتلوّى من الألم، إنها مصابة في قدمها.. تقدّمنا نحوها فتذكرت أنها الفتاة التي التقيتها أوّل مرّة عندما دخلت غزّة.

حملتها ولحق بي الجوكر حينها، أخذتها إلى البيت، كانت خائفة ومذعورة... طمأنتها: لا تخافي سنساعدك...

كانت غير واعية لما يحدث حولها، فقط خائفة وتبكي من شدّة الألم..

فزع خالد وعلي وذهبا حتى يضمدا جراحها، ارتبك حسن وقال: «هل رآك أحد؟».

أجبته: لا، الكل كان يجري من هول القذائف والرّماد...

جيد، علينا أخذها إلى مستوصف قريب يلفظ أنفاسه الأخيرة، من هنا يشتغل فيه صديقي وهو طبيب جراح.

الحمد لله أن هناك أطباء لا يزالون على قيد الحياة...

تهيأ حسن للخروج، أجرى اتصالا قبل أن يتحرّك... بدا مرتاحا بعد الاتصال.

ورأيت مريم منزعجة قليلا وخائفة سألتها: «لم كل هذا الخوف مريم؟».

مروى لا فكرة لديكم عمّا مررنا به... الفقد هنا شيء موجع جدا ومؤلم وله طعم آخر، الناس لا تموت كما يموت البشر، هم يموتون موتة لا تليق حتى بالحيوان، ممزقين، لا يبقى منهم شيء إلا بقايا إنسان، بقايا تشير إلى أنهم كانوا هنا فأصبحوا مجرّد أرقام سقطت بعد قصفهم، الأطفال تطير مع القنابل، الأطفال مزّقوا وتفحموا في حادث احتراق المخيمات... لك أن تتخيلي يا مروى... نساء تحمل بقايا أطفالهن في أكياس وهناك من عانت من العقم لسنوات

لتنجب بعدها مولودا يكون كل الفرحة والسعادة لتأتي قذائف الاحتلال وتسرقه كحلم ضائع من بين يديها، مروى النّساء هنا يقدّمن أطفالهنّ قربان صبر وتضحية لغزّة العزّة... النّساء يفقدن أزواجهن وبيوتهن وأحلامهن...

نعم مريم، أذكر تلك الحادثة أين سبيت الصبايا وجردوهن من ثيابهن واغتصبوهن تحت اسم شرعية القتال وأحقية الدّمار والخراب.

خرج حسن وحمل الطفلة وهي تنزف، سألها عن والديها وبيتهم فأجابتهم أنهم قصفوا جميعا في جباليا.

نزف قلبي دما ولفّ الحزن ثغري، دعت له مريم وودعته قبل طفله وخرج رفقة الشيخ أحمد والجوكر.

كنت ومريم رفقة سمر، خالد، علي، رغبنا أنا وسمر بقوّة في اللّحاق بالطفلة..

لم أسألها حتى عن اسمها.

حملت طفل مريم ونظرت إليه، كنت أتمنّى أن يكون مخلصا لغزّة في يوم من الأيّام... أتخيله صالحا وقويّا مثل والديه..

لقد بدأ يكبر، سمر بدت قلقة على الطفلة الجريحة...

فجأة تنزل قذيفة أخرى على بناية مجاورة لبيت حسن الأرضي...

تزلزنا وصار المكان مغطى بالتّراب... الوضع مأساوي... كنت دائما أتمنّى لو كنت موجودة وقت استعمار خرنسا للجزائر لحاربت بكل ما أوتيت لنيل شرف الجهاد وربّما الشهادة، أتمنى أن يكتبها الله لي بغزّة.

خفت في تلك اللّحظة لأن آخر شيء أتوقعه أن تفقد مريم زوجها.
اتصلت مريم على حسن لكنه لا يجيب فزاد الخوف...
جاءت مسرعة نحو خالد وعلي، هو لا يرد...
من؟
حسن أرجوك اتصل بالشّيخ أحمد أو الجوكر.
حسنا، اهدئي لا تخافي.
اتصل خالد على الجوكر بعد مدّة ردّ عليه.
نعم، من معي؟
قال خالد: هذا أنا خالد كيف حالك... لم لا يرد حسن... فزعنا كلنا...
قال أنّ الوضع كارثي بالمستوصف هناك عديد القتلى والمصابين...
عدد الأطباء قليل جدّا بالكاد يكفي لتغطية حجم الأذى والدّماء والمعاناة.
أخيرا تنفسنا الصعداء، هم بخير، لكن أخبرته أن يجبرهم على العودة بسرعة وأن يحذروا.
كان محمد يبكي فحضرت له مريم رضاعة وأخذته بين ذراعيها تضمّه ببكاء غريب وكأنها تريد أن تحضن كل أطفال فلسطين.
جلست رفقة خالد وعلي وسمر نخمّن في خطّة للبدء بالمهمة، أخرج خالد دفترا قديما كبيرا بدأ يرسم أولى خطوات اليوتوبيا، بدأ يرسم الانطلاقة والمنافذ الممكنة وثغرات العدوّ حتى نتمكن من البدء غدا لا وقت لدينا.

أرادت مريم أن تنظمّ، أخبرتها أن تهتم بطفلها أولا... هؤلاء الأطفال هم الغد الجميل لغزّة اعتني به لأنه جزء من اليوتوبيا، ربما تنضمّين لاحقا.

أخبرنا خالد بضرورة التحرك غدا لبيت صديق لحسن يدعى قتادة ربما معه الكثير من الشباب الذين صمموا على استرجاع غزّة ولو كان آخر شيء يفعلونه وآخر محاولة لأجسادهم الضئيلة النحيفة التي لم تأكل لأيّام.

أخبرت مريم أني أتمنى أن ألتقي بملاك، تلك الفتاة الفلسطينيّة الجميلة من أجمل ما أنجبت غزّة... كنت أتابع أخبار فلسطين والاحتلال عن طريقها.

كان من أجمل أيّامي هو اليوم الذي جمعت فيه التبرعات وأرسلتها لجمعية البركة بفرع قسنطينة... كان من أجمل ما فعلت.

أحسست على الأقل أنني خففت من وقع الخيانة، من وقع السّكوت والخذلان.

كان أبسط شيء أقدّمه لإخواني هناك.

نام محمد أخيرا، وضعته أمّه لينام جانبا.

وانضمّت إلينا حتى تكون على دراسة بما سنفعله.

خالد يبدو أنك مصر على ضرورة الانطلاق... لكن يلزمنا ترتيبات كثيرة.

أخـذت مريـم تسـير بـي فـي بقيّـة البيـت المقصـوف... اندهشـت كيـف استطاع حسن أن يحفر أسفل ركامه ويبني تحتها ما تبقّى من أحلامه وحطام البيت.

أرتني بقايا غرف المحكمة، وبقايا الصالون أين كانت تحلم ببناء عشّ زوجية هادئ مسالم يتّسع لكل أحلامها وأهلها وأحبابها الغزاويين والفلسطينيين.

أرتني الغرفة التي صمّمتها وهيّأتها لطفلها... لكن مع الأسف حرمه الاحتلال حتى من مهد بسيط وألعاب ووسائد ناعمة صغيرة وأحلام هادئة.

وهو الآن ينام على بقايا أحلامها وحطام الأمنيات الجميلة، وبالكاد توفر له أمّه الحليب ولا يملك سوى لباسين ووشاح جدّته كان كل ما تبقّى منها ليتوسّده.

سنكتب الآن فصل المقاومة للانبعاث من الرّماد

للبعث الجديد... سنكتب من جديد

فلسطين ستكون حرّة

سيعود الغائبون والنازحون والعابرون وسيفرح الشّهداء وسترقص الأمّهات في الفردوس مع أطفالهم... سيرجع الأحبّة وتختفي الأشلاء.

ثم أخذتني مريم إلى آخر البيت... ردهة كبيرة واسعة جدّا بها تراب أسود غزاوي نديّ يلخّص حكاية غزّة، يلخّص ألف عام من المقاومة ومرارة الموت والصور البشعة للاحتلال.

ثم أرتني مريم ما غرسته رفقة حسن من نباتات وورود وخضار كان غرسا يضفي على المكان شيئا من الأمل، شيئا من التشبّث بالحياة.

ما هي إلا لحظات إلا وعاد الجميع إلا الطفلة...

هرعنا مسرعين لنطمئن على الطفلة... كانوا منهكين والساعة تسير إلى الخامسة مساء، لم تكن الطفلة معهم وثياب حسن ملطّخة بالدّماء...

سألتهم عنها فقال لي في حزن: «فقدناها، غادرتنا لتثبت لنا مرّة أخرى أننا فاشلون بالمحاولة».

حسن البدايات صعبة؛ بل أصعب ما يكون...

ما كان اسمها؟

آمنة.

رحمة الله عليها..

قال الجوكر: «فعلنا ما بوسعنا... حاولنا إنقاذها... لكن يبدو أن الله شاء أن ترتقي لتذهب لأهلها، فقد كانت الناجية الوحيدة بعدهم.

قال الشيخ أحمد: «فليشملها الله برحمته الواسعة» غدا سأحضرها وسأكون المسؤول عن دفنها.

قـال الجوكـر فـي غضـب: سـنتحرّك فـي صمـت شـديد، وسـنحاول ألا نخسـر أحبّـة وأطفـالا مثـل آمنـة.

لن أجعل الأمر يطول...

جوكر منهار تماما...

رأيـت حالـة الأطبـاء هـم أيضـا يشـتكون التّعـب، طعامهـم قليـل، ماؤهـم متسـخ، جراحهـم تنـزف ولا يراهـا أحـد، مرهقـون مـن السّـهر وصـوت الألـم وملمـس الـدّم ومنظـر الأطفـال دون رؤوس ودون أطـراف.

وماذا عن المواطنين الذين اعتقلوهم وهم عراة في ذلك البرد جوكر؟

ومـاذا عـن الذيـن يأكلـون الأوراق ولـم يجـدوا حتـى مـا يأكلونـه.. ولا أيـن ينامـون، كـم مـرّة هزمتنـي صرخاتهـم وهـم جوعـى وهـم دون أهـل، دون مـأوى، جوكـر هـل فهمـت لمـاذا كرهـت البلـد!

كرهتــه لأننــا كاذبــون، خونــة، منافقــون، مزيفــون، لا نســتحق ماضــي أجدادنــا، ولا رايــس كهــواري ولا أقصــد الرايــس الماريونــات.

كرهتـه لأن هـواءه تلـوث بأنفـاس الأقـدام السـوداء، لأن نوايانـا تمطـر سـمّا أهلـك محاصيلنـا وقتـل بـراءة أطفالنـا... وجـرّد تاريخنـا مـن حقيقتـه.

كرهـت نفسـي داخـل ذلـك الوطـن... الـذي مـن المفـروض أن يصلـح للانتمـاء للسـيادة.

نحن لا نصنع مستقبلا فيه ولا نحيي ماضيا ولا نحفظ تاريخا.

قاطعنـي الشـيخ أحمـد قائـلا: «مـروى، كل هـذا الـكلام لا جـدوى لـه، اصنعـي نفسـك هنـا، أنـت القائـدة، أنـت مـن صمّمـت هـذه الرحلـة وبـدأت الطريـق، أنـت مـن جعلـت الجوكـر يتغيّـر، فكيـف تعجزيـن عـن حـبّ

نفسك وأنت التي رفضت الدستوبيا ولبست هذه الجرأة وواجهت وصرخت وتحدثت دون أن تختبئي وراء الضمائر الغائبة؟ أنت هنا تمثلين وحدة الشعب والأرض والعالم، أنت التي اختارك الرايس حتى تقاتلي، لم تكن المهمة سهلة يوما... لكن يجب أن تقاومي ذلك الكره للبلاد داخلك... يجب أن نعلّم النّاس هنا أن الوطن أمّ نحتاج أبناءها، الوطن هويّة، الوطن من يكتب التّاريخ، من يبني أفراده، من يحقّق لهم الأمن، من يكفل أحلامهم، ويرعب كل من يهدّدها.
باختصار الوطن هو الحياة.
غدا سأصلي على الطفلة عندما أتسلّمها من المستوصف.. سأدفنها بطريقة تليق بفقدها، بصبرها، ببراءة شهقتها الأخيرة.
خالد وعلي يتناقشان، إلى حدّ السّاعة، لم يفصحا عمّا يجول داخلهما.
يبدو الشيخ أحمد متأثرا لموت آمنة... أحسست ذلك في إصراره على دفنها كأب سيدفن فلذة كبده بمرارة..
جوكر لم يصدق ما رآه، يبدو متعبا جدا.
يبدو أن الوقت غير ملائم كي نحدّد الانطلاقة غدا والوجهة.
السّاعة تسير إلى الثامنة ليلا.
اتفقت أنا ومريم أن نحضر العشاء رفقة سمر..
بينما تهيأ الشيخ أحمد للصّلاة رفقة الشّباب.
بينما نحن نحضر العشاء ونقطع البصل والباذنجان، تحدّثت مريم..
سمر كانت منشغلة بقطف بعض المعدنوس والثوم من الرّدهة.
قالت مريم: هل سمر جارتكم، هل هي يتيمة؟

أجبتها، نعم، هي من قرية مجاورة لنا، أنا كما تعلمين أعيش بقرية الأمير عبد القادر وسمر جارتي التي تعرّفت عليها عندما كنت أحفظ الأطفال في المدرسة القرآنيّة للحي.

كانت آنذاك مريضة وتسقط مرّات مغشيّا عليها من أثر فقدان والدها الذي مات مؤخرا إثر المرض.

ولديها أخ فقط والحمد لله أن والدتها حيّة وتعمل بالحياكة والتطريز حتى توفر لهم قوت اليوم.

تنهّدت مريم: آه يا بلادي، مازلت تجرّين ذيلك ولا تلتفتين إلى الفقير والمحتاج...

وما الذي سيتغير يا مريم، ما دام الربّان الفاسد لم يتغيّر؟

سمر فتاة حالمة وطموحة جدا ليست، كاللّواتي يرضين بالموت داخل أقفاصهن، هي ترفض مصير أمّها وخالد وعلي لا تريد أن ينتهي بها الأمر وهي تصادر أحلامها وتصادق عليها بيمين غموس، وتزرع الدّبشة وتبيع المطلوع.

فهمت الآن.

وأنت لم تتزوجي!

لا، ليس بعد.

لم هذا السؤال مريم؟ كنت أظنّ أني تركته ورائي بالجزائر، يبدو أن الجزائري لا يتغيّر أينما حلّ وارتحل.. هههه نضحك سويّا.

لا تخافي عندما أتزوّج سأقوم بدعوتك...

مريم قائلة: «ومن يدري، ربّما تتزوجين فلسطينيّا».
لم لا، يشرّفني ذلك.
حضّرت العشاء، أخذت سمر تعدّ الصّحون وتضع معنا الطعام...
وأنا قطعت الثوم والمعدنوس وأضفته لطبخة الباذنجان.
تقول مريم إنها أكلة حسن المفضّلة.
سمر: «أنا أيضا أحبّ الباذنجان، كنت أزرعه بأرض القرية بكل حبّ».

التفّ الجميع حول الطعام، بدأنا بالبسملة وأخذ الجميع يأكل في هدوء، لم ينطق أحد بكلمة، حسن متعوّد كما تقول مريم على الهدوء، والبقيّة ألزمتهم المناظر المشوّهة اليوم بالصّمت الثقيل وحوّلتهم إلى كومة دهشة لا تنتهي.

سمر هي الأخرى ظلّت تفكّر بآمنة وفاجأتني بينما نتناول الطعام وهمست في أذني وقالت: «ليتها بقيت حيّة، كنت لأعتني بها ولأعدها أننا سنعيد لها دفء العائلة».
آمنة انتقلت إلى مكان أفضل يا سمر، ستكون سعيدة هناك ستلتقي أسرتها التي ارتقت في خانيونس. لا تخافي... الشّهداء أحياء عند ربّهم يرزقون.

أنهى الجميع طعامه بهدوء، حمدنا الله.

جمعت الأواني مع مريم وأعددنا الفراش حتى يرتاح الجميع بعد أداء صلاة العشاء.

تبدو سمر متعبة جدّا، حمدت الله أنها لم تذهب معهم وإلا كانت ستتضرّر أكثر.

كيف لها أن تحزن كل هذا الحزن وآمنة طفلة عابرة، طفلة تموت من بين ملايين الأطفال.

غسلنا الأطباق وصلّينا، مريم ذهبت إلى غرفة مجاورة مع حسن وطفلهما الذي كان جائعا ينتظر رضّاعته.

توجهت أنا وسمر إلى فناء خلفيّ به بقايا حطام كان شاهدا على بداية حبّ لم يكتمل وعشّ زوجيّة تحطم في أوله.

ناداني الجوكر بهدوء، أخبرت مريم أن تنيّم معها سمر، خرجت خارج البيت ولازال القصف مستمرا والحركة لا تهدأ وصراخ الأطفال وهم جيّاع.

مروى قرأت الآن تصريحا المقري وهو يقول أن إسرائيل ستضرب 3دول عربيّة ومن بينها الجزائر...

جوكر، ما بك خائف؟

وكأن أمريكا من ستتأذى...

نظر إليّ بحزن وصدمة قائلا: «ليست بلدي ولا موطني... الوطن الذي لا يمنح سوى شهادات الوفاة ليس وطنا، والوطن الذي يجبر الأمهات أن تتخلى عن أبنائها ليس بوطن.. لن أعرف الانتماء

يومـا... فقـط فوضـى وحطـام ومطـاردة باتمـان وإيـذاء الآخريـن حتـى أحـسّ بأنـي مواطـن مـن غوثـام.

لـو رسـموا الوطـن علـى حقيقتـه وباتمـان بوجهـه مـا تفـرّج طفـل علـى ذلـك الكرتـون.

وما أحبّ أحد باتمان بما فيهم أنت...

أنـا لا أحـبّ باتمـان.. كنـت معجبـة بشـرّك اللّطيـف ووجهـك المميـز وعـدم اكتراثـك لهـذا العالـم البائـس...

لحظة، أنت كنت تقول دوما عبارة:

Why so serious?

ما الذي أخافك الآن؟

الجزائر ببساطة أهدتني نفسي...

أهدتني الحقيقة...

كيف ذلك؟

أهدتني أنت.

خجلت من تهجّمي على الجوكر.

شـكرا لـك وأنـت أيضـا هديّـة رغـم أنـه مـن الغريـب أن تهـدي أمريـكا العـرب شـيئا.

مروى لا أطيق صبرا حتى أفجّرهم، حتى أرتدي مساحيقي مجدّدا.

إنها فوضى كبيرة... إنهم جوعى.. إنه حصار عدواني كبير.

لم يبق لديهم ما يقاومون به... تعبت الأرواح والأجساد والأنفاس.

إنها أكبر من مجزرة هتلر...
لقد تعبوا، أرهقوا، ليته كان طوفانا واعيا...
لم يكن طوفان الأقصى، بل كان طوفان، الموت والجحيم.
لماذا حماس قادت البلاد إلى الموت، إلى العذاب والمجاعة؟
هم يقتلونهم بدم بارد، هم يموتون جوعا...
الموت برصاصة الكلاب خير من رعب النّباح والكلب.
جوكر أنا هنا أكتب ليس ليدرك الجميع وضع غزّة..
ولا أن نكون أبطالا يحاولون بناء يوتوبيا فوق الدّمار والجحيم..
أكتب حتى يشهد التاريخ أنّنا خونة... أنّنا أسوء بشر عاشوا على وجه الأرض، أكتب كي أخلّد عار العرب، عار الخذلان والتخلّي...
أكتب كي أذكّر العرب أنهم كلاب ككلاب الصهيون تماما...
فقدت النّساء أولادهن في بطونهن..
أكتب كي أذكّرهم ببشاعتنا بالحضيض الذي ننعم فيه...
أكتب كي أخلّد أن قافلة الصّمود رجعت لأن الإخوة العرب أغلقوا المعابر والحدود...
أننا لن نسمع أنينهم، لم نأبه لبقاياهم وأنا الآن لا يمكنني النوم.
الدرون الذي يترصّدنا ورائحة الشّهداء والموتى.
أكتب لأن طهر المكان مثل طهر مكّة...
نفس الاحساس الذي أحسسته عندما وطأت قدمي مكّة..
لغزّة رهبة وهيبة... لها رائحة الحرم... رائحة المهارة... رائحة الجنّة.

أكتب حتى أحاول تبرئة ذمتي، والتبرير لسكوتي وضعفي.
أريد أن أصرخ بكل طاقتي جوكر...
ليتني أستطيع لأضمّ كل الأطفال إلى جناحي
وآويهم إلى قلبي... أين لا حزن ولا خوف...

كلّما صلّيت إلا ودعوت ربّي.
يا الله، إن كان تحريرها بقيام الساعة فأقمها يا رب.
والله لقد مرضنا وتألّمنا وقهرنا وتعبنا، قلوبنا ذابت وعقولنا أصبحت تعيد ليلا بتعب ما تراه نهارا...
يا الله، نتبرّأ لك من كل ضعف... من كل قلّة حيلة...
يا الله، أشهدك أني لم أرضَ.
أشهدك أنك أحد صمد فاقض ما أنت قاض...
يا الله، الأرض أرضك والسماء سماؤك والجند جندك.. سلّط على اليهود غضبك...
أكتب يا جوكر كي تصل الرّسالة لكل الحكّام الخونة...
حتى الرايس هواري أريده أن يعلم أننا على العهد ومع فلسطين ظالمة أو مظلومة...
أكتب كي أشبع التاريخ الكاذب حتى يتخم...
أشبع حتى أترك في المكتبة العربية التي لم تبن أصلا حتى يقال كتب عربي ومسلم يوما عن جرمه في حقّ فلسطين...
أكتب حتى أخبر الجميع أننا خطط هزيلة..

أننا مشاريع مجهضة قبل حتى أن تبدأ...
أننا مؤقتون لكل فرحة، لكل حزن، لكل خيبة.
نحن المستعمر الحقيقي لأنفسنا والوطن.
أكتب حتى يفجر القلب الذي داخل قلمي..
أكتب حتى يشهد التاريخ أن غزّة وحدها... أشعلوا النيران في أجساد أطفالها وهم نائمون.
تسلى بهم اليهود وهم يطلقون عليهم الرّصاص في طوابير الطّحين.
مات الإخوة وحمل الأخ جثّة أخيه بدل أن يحمل كيس الطحين...
وتلك الطبيبة التي انهارت لمّا بلغها قصف منزلها واستشهاد كل أطفالها الذين كانت تقاوم الموت لأجلهم.
أسوء ما قالته امرأة فلسطينيّة نازحة، وأكبر مقطع أخافني هي دعوتها ألا يشفع لنا النبي صلى الله عليه وسلّم.
أتفحّص مؤخرا الأخبار فأجدهم يحذرون من تسونامي والزلازل...
والله ليس هناك ما هو أشدّ من الزلازل التي تحدث بغزّة...
وتسونامي الحقيقي هو الذي يجتاحنا كل دقيقة بصمتنا الملوّث...

من اليوم عار أن نشهر إسلامنا، عار حتى أن أقول أنّي جزائريّة...
نعم لقد خنتهم أنا أيضا.
أضعف سلاح أملكه الدعاء والقلم، ولا ملجأ من كل هذا سوى الاعتراف حتى يخفّ العبء عني.

نعم أنا خائنة، رأيتهم يجوعون وأكلت وما ينامون ونمت ويبكون وضحكت ويتألمون وتجاهلت، مشتتون وما اكترثت..
أحمل الولاة الذنب والريّاس الذين يتبولون في سراويلهم لو ذكرت كلمة إخرائيل وأمريكا اللّعينة.
جوكر: «مروى، كفي رجاء، قلبي يؤلمني، لأوّل مرّة أحسّ أني بهذا السوء».
ستكتبين عن هذا السكوت بما أنك اتخذت خطوة جريئة كهذه...
مروى بعد أن ننهي هذا العمل لا تدعيه في بيتك ولا تبيعيه للمكتبات التي تصادر كل ما نفعله للقمامة.
وإن استطعت أن تقدّميه لجائزة فقدميه لا للتباهي بل حتى يبقى عصا ذهبيّة تسوس الرّعاع وتقودهم إلى مرعاهم الصحيح.
دعينا نبدأ غدا ما جئنا لأجله.
دعينا نبدأ حربا لا تنتهي، نبدأ دولة لا يمكن لأحد سنّ فرمانتها ولا أن يفرض عليها عقوبات ولا أن يرسم لها الحلال والحرام.
جوكر غدا سننطلق إلى أمّ محمد كما أخبرتني مريم، تلك المرأة التي استشهد ابنها وما لحقت حتى تراه وتدفنه.
سأحاول أيضا البحث عن الآنسة ملاك ربّما أجدها، ولو أسعفني الأمر والوقت سأبحث أيضا عن عائلة الشيخ خالد وريم وطارق.
عدت إلى بقايا المنزل المكون من الحطام...
وبقايا الوعود الجميلة الطيبة... وبقايا آخر الأمنيات... والخطابات
الجميع قد ناموا...

استيقظنا في الصباح الباكر بعد ليلة طويلة من التفكير الثقيل..
وجدت الشيخ أحمد قد سبقني إلى الصّلاة كالعادة، ووجدته يقرأ القرآن كعادته.
كم يعجبني تمسّكه بالله عزّ وجلّ وصبره الكبير...
جوكر أيضا استيقظ باكرا... يبدو أنه لم ينم أصلا...
توجهت كي أعدّ خطّتي ثم أرتّب الفطور للجميع.
سمعت صوت محمّد الرضيع يبكي... يبدو أنه جائع، وها هي مريم قامت حتى تعدّ له رضاعته.

توجهت مريم نحوي وقالت: يجب أن تفكّري بعجلة لنتوجّه إلى أمّ محمد.
لكن مريم يجب أن أضع خطتي أولا... أحتاج أن أرتّب الأمر رفقة الجوكر وأيضا أجري اتصالي مع المترجم عمار حتى يمكننا من تخليد هذا الانقلاب وباللّغة التي يفهمها الكلاب.
مهلا مريم، دقائق فقط وأعود...
مروى سنذهب الوضع يزداد سوءا...
المترجم أيضا على الحدود رغم أنه رجل قويّ وشهم ولا أخاف عليه شيئا من الطريق، لكن بمجرّد الاقتراب من غزّة يصبح الوضع شائكا قليلا.
أريد أن أظلّ معه على الهاتف حتى يعبر بسلام.
كيف سيعبر؟

سيعبر بطريقته.

حسنا، كنت أظنّ أن علي وخالد بالداخل لكن قالت مريم أنهم غادروا رفقة حسن حتى يدبروا لنا مأوى أفضل..

سيصبح المكان خطرا خلال أيّام، وربّما ساعات القصف متواصلة ولن يتوقف.

نادانـي الشيخ أحمد قائلا: «مروى ابنتي، لدي بعض التوجيهات... كوني حذرة رفقة الشباب».

لازالت الحياة أمامكم طويلة أنت ستكونين قائدة جيدة، لكن لماذا كلكم تلقون بهذا الثقل على كاهلي؟ لست المسؤولة وحدي، أظنّك والجوكر أكبر في التسيير واتخاذ القرارات الصّائبة.

مروى أنت صاحبّة فكرة اليوتوبيا، مروى لا تنسي أن الرايس اختارك وأظنّه لن يتركك في حال ساءت الأمور.

أخفت عيني عنوة بعض الدّموع الهادئة الصادقة.

كلام الشيخ أحمد مؤثر جدّا، وأرى به مسؤولية كبيرة جدا.

أجبته بطمأنينة: نحن لها، الحمد لله أنه اختارنا والجهاد وغزّة لم تختر غيرنا.

سأكون عند حسن الظنّ والمسؤولية، سأكون كبيرة بما يكفي وواعية حتى أصل بهذه الرحلة إلى نهاية طيبة.

سأبذل كل ما في وسعي حتى لا أجعل هذه الرّحلة تخفق، سأحول حفظ العهد وخاصة ذلك الذي أعطيته لهواري، لا يهون عليّ أن أخذل الرايس.

وحتى البلاد على الأقل، أريد أن أكون مواطنة جزائريّة صالحة.

اتصل حسن على مريم، يبدو أنه وجد مكانا جديدا يبدو أفضل وأبعد عن أنظار الاحتلال...
تغيّر وجه مريم، أعرف أنها لا تريد مغادرة بيت الزوجيّة حتى ولو كان حطاما، حزنت كثيرا... واغرورقت عيناها فجأة وتمسّكت بمحمد وأخذت تشمّه وكأنها كانت تريد منه أن يواسيها.
ابتسمت ابتسامة تشبه ابتسامة غزّة الجريحة، وأخبرتها ألا تحزن سنعود قريبا وسنبني المنزل ونعيد لها ذكرياتها ورائحة الماضي حتى ولو لم نتمكّن من إعادة الأهل والأحبّة...
مريم سينمو الرمّان والعنب من جديد
سيزهر اللّيمون والياسمين عن قريب
سنأكل ويأكل الجميع من هذه الأرض قريبا..
سيفرح الأطفال.. ستعود البسمة... ستشرق شمس مختلفة ألوانها وبوجه باسم من جديد.
ستلد الأمّهات أرواحا طاهرة جديدة... ستعود الضحكات... سنبني المتاجر والمدارس والمساجد التي قصفوا حناجرها وهي تؤذن ونلعن الباطل وندعو الحقّ.
سنعيد الغرس والأمل والحياة.
سنبني غدا أفضل.. ستجوع أمريكا.. ستغرق في ديون هؤلاء الأبرياء.

ستتحطم قلوب الأمّهات مثلما تحطّمت قلوب الغزاويّات... سيأتي يوم ولا يجدون ما يأكلون، سيأكلون بعضهم وآثامهم، ربما سيأتي المسيح كي يخلّصهم بعصا سحريّة.

سيكبر محمد وسيصير رجلا قويّا تعتمدين عليه، سينسيك هو والآلاف من الأطفال دموع غزّة. سينسيك كل هذا الدّمار، سيحملك بحبّ ويجول بك في ضواحي فلسطين وغزّة وأريحا وبيت لحم وجباليا والشجاعيّة وخانيونس ويافا الجميلة.

ربما عندما تكون لي طفلة في المستقبل سأسميها يافا، إنها أحبّ المدن الفلسطينيّة على قلبي، المهم سيعود فصل الربيع قريبا لا تقلقي. إذن سننتقل إلى مكان جديد حسب ما قالته مريم لأن الاحتلال اقترب من جباليا كثيرا وكثرت الغارات والهجومات العنيفة.

خرجت بعد أن تناولت فطورا خفيفا رفقة سمر ومريم ومحمد تركناه الشيخ أحمد، لأن الدرون يترقّب كل شيء ويبحث عن الذين يشبهوننا ليبيدهم.

اعتمدت مريم على صديقة لها تدعى «ريم النجار» حتى تريها خيمة أمّ محمد، يبدو أنها ستلتقينا عند حافّة حطام المدرسة المجاورة للبيت، أخذت أمشي ومريم برويّة حتى نعبر الشارع المؤدي إلى النّاحية الجنوبيّة من جباليا، وكنا في مرات أخرى نسرع لأن المكان بعيد نوعا ما، التقينا مع ريم كانت فتاة تلخّص جمال غزّة وفلسطين، وكأن كل الجمال يصبّ في عينيها، وجهها يشبه طهر المكان وملامحها طفوليّة وبريئة كبراءة غزّة مما يحدث لها.

ريم فتاة عشرينية ذات 22 ربيعا، كانت تدرس صيدلة قبل أن يدمّر الاحتلال أحلامهم وقبل أن يغرقهم طوفان الأقصى في مأساة لا خروج منها إلا برحمة الله.

عيناها بنيتان كلون القهوة الغزاويّة المتفرّدة التي تطحن مرارة الأيّام، وابتسامتها كغزّة في ريعان شبابها وعنفوان قوّتها وأبهتها العظيمة.

ريم شامخة كفلسطين لا يبدو عليها التعب والاستسلام والعرق وسط الحطام، وسط القنبلة التي تفجّر معها الماضي والحاضر والأحلام وكل الرسائل التي تحمل النصر وتعانق الحريّة والحبّ والسّلام.

أحسست وكأن غزّة تمثّلت في امرأة بل لو كانت غزّة امرأة لكانت ريم النجار.

لوهلة نسيت الطريق، وضعت بعيدا في تفاصيل ثوبها الفلسطيني حتى نسيت أننا بالحرب، أننا مهدّدون بالموت، ثوب فلسطين المطرّز كان كفيلا بأن ينقلني من ساحة الحرب إلى باحة الجنّة في ظرف دقائق. فما بالك لو جلست أحدّثها، أجزم أنها ليست عاديّة شدّني إليها إحساس غريب وكأن النصر سيأتي على يديها، وكأنها راية انتصار رفعت قبل أوانها حتى قبل أن نخوض الحرب ونفقد أو تفقد.

ألقت السّلام بابتسامة لطيفة، وقالت: «السلام عليكم، أنا ريم من قرية أريحا استقرينا مؤخرا في جباليا أين فقدت كل أسرتي عدا أبي وأخي الصغير. رحبّت لمريم ورحبّت بي دون أن تسألها، ربما تكون مريم قد أخبرتها عني، أو ربما امرأة مثلها لا تحتاج أن تعرف

مـن أكـون، فالصالحـون سـيماهم علـى وجوههـم.
قالـت بصـوت خافـت: «بمـا أنهـا صديقتـك يـا مريـم، فـكل مـا يأتـي منـك طيب».
شـكرتها مريـم وابتسـمت ابتسـامة مريحـة، وقالـت: لنسـرع إلـى خيمـة أم محمـد، فعلقـت ريـم قائلـة: نعـم لنسـرع لأنـي اليـوم مشـرفة علـى تيكيـات الإطعـام فزميلتـي مريضـة ويجـب أن ألبّـي اليـوم كل نـداء وطلـب وأخـدم أبنـاء فلسـطين الحبيبـة مـن عيونـي.
مـا شـاء الله! هـم محظوظـون لأن الله اسـتعملهم فـي الخيـر، وشـاء لهـم أن يدخلـوا الجنـة مـن الطريـق الصعـب الشـاق.
أين سيقول لهم الله يوما: «ادخلوها بسلام آمنين».
سـمر تعبـت مـن الهرولـة، صـوت غـارة قريبـة... نحـن نلتصـق بالجـدران... نراقـب بحـذر تحـرّكات الدبابـات وخاصـة الـدرون الـذي لا يكـفّ عـن مطـاردة الجوعـى والأبريـاء والغلابـة.
فجـأة تركـت سـمر يـدي لأن قطعـة شـظية صغيـرة خدشـت قدمهـا... فسـالت بعـض الدّمـاء، توقفـت، الحمـد لله لـم يكـن الجـرح كبيـرا كان خدشـا سـطحيّا... مزقـت بعضـا مـن ثوبـي المتدلـي الفضفـاض وأخـذت ألفّـه حـول قـدم سـمر التـي تنـزف، ارتبكت مريـم وقالـت: «لنعـد أدراجنا، سـتزداد الغـارات وأخشـى علـى سـمر».
«لا، لا يمكننـا سنسـتمر»، سـألت سـمر إن كان بإمكانهـا متابعـة المشـي، فقالـت: «نعـم بـكل سـرور».

واصلنا المشي بوتيرة أبطأ على وجل... تمتمت ريم وقالت لمريم: «لماذا لم تأتوا بالسيّارة؟».

فقالت مريم: «لا الدرون سيرصدنا وتأتي أوامر التفجير ونصبح رقما جديدا في زمرة الشّهداء».

بعد برهة من الزمن بلغنا مجموعة كبيرة من الخيام، بعضها أزرق والآخر أبيض والحرّ شديد جدا والغبار والجوّ يبدو وكأنها صحراء غادرتها الحياة غصبا، ملامح الناس هنا غابت وتغيرت كلهم جيّاع بالكاد يقفون، متعبون، دخلت أحمل سمر لأنها تعبت وقدمها تؤلمها، اتصل الجوكر والشيخ أحمد حتى يطمئنوا علينا، قال جوكر أن الاحتلال حسب الراديو والجيران الذين يصرحون إنه سيشنّ هجوما عنيفا اليوم وسيشمل عدّة مناطق...

يجب أخذ الحيطة والحذر الشديدين.

بلغنا وسط ركام من البشر خيمة كبيرة زرقاء يلعب حولها أطفال تمكّن منهم الجوع والتعب والخوف والخذلان وكل شيء...

سبقتنا ريم ودخلت إلى الخيمة، وبعد دقائق ما إن بلغنا المكان حتى خرجت أمّ محمد تزغرد وترحبّ. وأخذت تنادي نساء المخيمات المجاورة وتقول: «يا مرحبّا بضيوف العزّ، يا هلا بأهل الجزائر... يا مرحبّا ببلد الشّهداء... «.

شعرت بالخجل... وقلت في نفسي بلهجتنا: «وينا عز راك تهدري عليه كون يطلوا علينا الشهداء أقسم بالله يندموا على محاربة فرنسا والموت في سبيل الاستقلال... البلد تسلّمته الدمى اليوم وها هو

يرقص في كل مرّة شرقي ومرة شاوي وهي رايحة... حتى الرقص تاعو ما يوكلش حتى التبن».

أسرعت مريم إلى احتضان أمّ محمد وهمست في أذنها أنها تريد بناء الحياة، أننا جئنا في مهمة سريّة لنبني معهم الأحلام الضائعة ونغير قليلا الأخبار التي تتناقل أخبار الموتى والدّمار...

سنغير التاريخ من جديد... سنعيد رسم الخارطة... سنعيد رسم سياسة جديدة... سنؤمّم كل ما ضاع من حقيقة ووحدة وكرامة.

بكت أم محمد وقالت: الحمد لله، سنتعاون ولم يخيبنا الله.

سلمنا على النسوة وأمّ محمد خاصة وأخبرتها أنني أتابعها على الإنستغرام، ففرحت وقالت: «والله إحنا بنحبكم يا أهل الجزائر، والله ما إلنا بعد الله إلا أنتو معانا، الله يسعدكم ويوفقكم وين ما كنتو يا رب».

أخجلتني ثقتها وأخجلني حبّها.

عزّيتها في فقيدها ابنها الشهيد، وجلسنا عندها، رغم المعاناة والحصار ورغم أنها لا تعلم بقدومنا، إلا أنها قدمت لنا الشاي والحلوى والتمر.

يا لكرم أهل غزّة! يا لعظمة الجود حتى في أحلك الظروف! أمّ محمد صابرة محتسبة متوكلة...

ما لاحظته أن الجوع قد أكل من ملامحها وتغذى على ما تبقى من جمالها، كيف لا وهي الأم الثكلى التي لم تر حتى فقيدها وهو شهيد.

أم محمد تخاطبني بكل حبّ وود: «كيف حالكم طمنوني عنكم، كيف

حـال الجزائـر والله شـرفتيني بالخيمـة، تمنيـت لـو كان الوضـع أحسـن وانتهـت هـاي الحـرب اللعينـة وضيفتـك ببيتـي، أنتـو أهـل الجزائـر مقامكـم عالـي».

مـن كثـرة سـمو حديثهـا عـن الجزائـر ومقامهـا العالـي شـككت فـي نفسـي، إمـا أن البـلاد جنّـة ولهـا مـن الصيـت مـا لـم تبلغـه مكّـة، أم أنـي مواطنـة فاسـدة لا تشـكر النعمـة.

إذا قـرأت سـطري هـذا لا تؤولـه ولا تفسـره مـرّ عليـه مـرور الكـرام، إلا إذا كنـت تشـبهني فلـك الحـقّ أن تسـتمتع بـه وبالنوايـا التـي يحملهـا.

كانـت الخيمـة وكأنهـا تلتهـب مـن شـدّة حـرارة الجـو، أم محمـد وأنـا أخبرهـا عـن حـال الجزائـر أردت أن أعتـذر لهـا عـن سـكوتنا وعجزنـا فأجابتنـي: «أعلـم أنـه مـا باليـد حيلـة»، همسـت لمريـم: نسـيت أن أحضـر معـي شـيئا لقـد أحضـرت لهـا غصـن زيتـون مـن البـلاد، زيتونـا بريئـا غرسـه جـدّي قبـل أن تقتلـه خرنسـا.

ردّت مريم: «ستأتي الفرص».

لديها بنتنان كانتا نحيلتين ومتعبتين من الحرّ وتتقلّبان داخل الخيمة.

فاتحنا أم محمد بما جئنا لأجله.

قالـت ريـم: لقـد قدمـت مـروى والعديـد مـن الرفـاق الذيـن تركـوا الجزائـر حتـى يقاومـوا معنـا حتـى يغيـروا هـذا التاريـخ المشـؤوم.

فرحـت كثيـرا وقالـت: «إن شـاء الله النصـر يتحقـق علـى إيديكـو يـا رب».

أجبتها: «آمين يا أمّي، أعدك أننا لن نتخلى عن همّ غزّة حتى ننتصر لها أو نموت ونحن نحاول فعل ذلك».

بدأت مريم بالحديث...

الآن سأفهم الخطّة كاملة لأني أخبرت مريم سابقا عن نيتي وخطتي وترتيباتي رفقة الشيخ أحمد والجوكر خاصة، لأن لديه روح انتقام كبيرة من أمريكا اللعينة التي جعلته مهرّجا تائها ومجنونا يطارد القدر وأخطاء لا دخل له فيها.

جلست مريم وأم محمد وريم هي الأخرى، أبدت رغبة كبيرة في تقديم المساعدة، أنا وسمر تحلقنا وبدأنا نرسم على ورقة كبيرة، من الجيد أني أحضرتها من دفتر الشيخ أحمد.

قبل أن نبدأ اتصل بي الجوكر مرّة أخرى: نعم، جوكر ما الأمر؟

كيف حالكم! هل أنتم بخير؟ هل تمكنتم من العبور؟

نعم، ولكن أصيبت قدم سمر عندما اخترقتها شظية قذائف صغيرة كانت على الأرض.

ماذا؟

ذعر الجوكر، لا تخف إنها بخير.

كيف؟

لم لم تعودي إلى المنزل؟

هو مجرّد خدش صغير.. نزفت قليلا ثم توقف لقد ربطته بقطعة من حجابي.

مـن فضلـك كونـي حـذرة، حاولـي أن تأتـي باكـرا... نحـن لا يمكـن أن نتوقـع مـا سـيفعله المحتـل، الغـارات مسـتمرة والعـدوان يزيـد.

والمكان مستهدف والوضع لا يبشّر بخير..

أرجوك عودي سالمة رفقة الجميع.

نعم جوكر، سأحضر ضيفة جديدة يبدو أنها متطوعة جيدة.

من تكون؟ لا يمكننا الوثوق بأحد لا نعرفه.

بلى، ستعرفها جوكر إنها طيبة جدا.

أخبرته بضرورة إغلاق الخطّ.

لم أسأله إن كان الجماعة عادوا وهل وجدوا مأوى جديد!

لكن سأترك هذا لاحقا، يجب أن نوضّح المهمّة الآن.

سأركّز جيدا وأحاول أن أبدأ...

مرّة أخرى يرنّ هاتفي.. من يكون؟

ألـو.. ألـو... السـلام عليكـم إنـه أنـا عمـار عمـار قواسـمية... عمـار آه نعـم مـن شـدّة الارتبـاك نسـيت مـن تكـون. ههـه لا علينـا... أيـن أنـت لـم أشـأ أن أزعجـك بكثـرة الاتصـالات حتـى لا تخطـئ خطـاك... ولكـن أيـن أنـت يـا رجـل؟

لقـد تخطّيـت الحـدود بصعوبـة ودخلـت غـزّة... كـم هـي عظيمـة هـذه الأرض...

سـماؤها وأرضهـا والنفـس فيهـا كل شـيء مختلـف.. تمامـا كوصـف لقطعـة مـن الفـردوس الـذي لا ينبغـي إلا للقلـة القليلـة.

أين أنت الآن؟ كفاك وصفا وتغزّلا بغزّة وهي جريحة...

كمـا عهدتـك أوّل مـا تفعلـه الوصـف الدقيـق، ثـم ترتشـف أوّل لحظـة تصادفـك فـي كل مـا هـو مميـز.

عندمـا تعـود للجزائـر يمكنـك أن تعلّـق أو تكتـب مـا تشـاء عـن هـذه اللحظـة التاريخيّـة، لكـن الآن أخبرنـي أيـن أنـت؟

أنـا برفقـة صديـق لـي مـن خانيونـس.. عـادل الـذي أخبرتـك عنـه سـابقا عندمـا أخبرتنـي عـن رغبتـك فـي تـرك البـلاد وهجـر الدسـتوبيا المظلمـة...

لدي معارف كثر من فلسطين، وبالمناسبة لقد أحضرت مساعدات.

ماذا؟ أتمزح! كيف أدخلتها.. ؟

قدّمت رشوة.

ماذا؟ أتمزح!

طبعا أمزح... أقصد رشوة لغويّة جميلة..

آه يا عمار من ويلاتك!

شكرا عمار أسعدتني كثيرا.

والله نحـن عنـد أم محمـد فـي خيمـة بائسـة حرارتهـا مرتفعـة جـدّا، والله يـا عمـار لا تليـق حتـى بحيـوان يسـكنها.. هـم لا يأكلـون بـل يقتاتـون فقـط حتـى لا يموتـوا، كـم خجلـت مـن نفسـي ومـن البـلاد التـي راحـت مثلمـا راح هـواري والأسـياد.

الحمـد لله أتيـت بالمسـاعدات الغذائيّـة لأنـي والجوكـر والجماعـة لم نحضر سـوى القليـل مـن المعـدّات الغذائيّـة ومؤونتنـا والكثيـر مـن المسـاعدات الطبيّـة وحليـب الأطفـال.

ماذا عن الأسلحة؟

ههه، أتهزأ بي!

السلاح؟

أمزح فقط.. نحن السلاح والقوّة والدّمار.

سأحقّق ما لم أحقّقه في البلاد، وسأقول كل ما لدي على الجدران على بقايا الدّمار..

على وجه الاحتلال إن لزم الأمر.

عمار أين أنت تحديدا؟ الجميع يناديني داخل الخيمة، يجب أن أعود كما أن الشّمس أحرقتني.. والمناظر مزّقتني إلى أجزاء.

أنا أقترب لا تخافي، لم يتبق الكثير على جباليا... عمار كن حذرا.

تمام، سأرسل لك رقم حسن للتواصل معه.. من المحتمل أن نغيّر المكان الليلة.

نعم اتفقنا، في أمان الله.

أمّنك الله.

عدت مسرعة إلى الخيمة، رفعت رأسي إلى السماء هناك طائرات تحوم، خفت كثيرا، وجدتهم يتبادلون الحديث وكأنهم بأوّل جلسة في الجنّة وليس ساحة حرب.

وجدتهم يتجاذبون الحديث رفقة أم محمد، كم هي امرأة طاهرة وجميلة، كم أحببتها، وأول مرة تراءت لي عندما تثاءب الفجر أول مرّة بغزّة، عندما وضعت أول قدم هنا.

قاطعت حديثهم لنبدأ بالاتفاق حول الانطلاق.

الليلـة سـنغير موقعنـا وهـذا احتمـال كبيـر. سـنغادر إلـى منطقـة أكثـر أمانـا.

لـدى مريـم مـا يكفـي مـن الأصدقـاء.. أطبـاء ومهندسـون وآخـرون كانـوا يعملـون بالإذاعـة مقيميـن بفلسـطين، ولكنهـم مـن جنسـيّات مختلفة.. أم محمـد لديهـا مـن الرفقـة مـا يكفـي لنبـدأ ملحمتنـا.. أمـا بالنسـبة لـي فأنـا والجوكـر العظيـم والشـيخ أحمـد وسـمر والبقيّـة سـنبدأ وننقسـم إلـى مجموعـات.

انفجـرت فجـأة قذيفـة بالقـرب مـن الخيمـة صرخـت سـمر، قلبـي يرتجـف وتزيـد ضرباتـه، كنـت سـأخرج...

أمسـكت أم محمـد يـدي وقالـت: «إيـاك أن تخرجـي، هـي مجـرّد تهديـدات كـي نخلـي المنطقة».

كيف تخلون المنطقة؟ إلى أين ستذهبون؟

ألم يكفهم أنكم تحترقون بالخيام؟

ألـم يكفهـم أنكـم تجوعـون وتتألمـون ولا يوجـد بينكـم مـن لـم يفقـد ابنـا أو أخـا أو أختـا أو أمّـا وأبـا؟

نظـرت أم محمـد إلـى الأرض وقالـت: سـنضرب سـواعدنا الآن إلـى هـذه الأرض لنعقـد معهـا صفقـة الحيـاة، لا فائـدة ترجـى مـن الحيـاة.

أريد أن أخرج لكن القذائف تنزل..

يـا إلهـي، قذيفـة تنـزل بجانـب الخيمـة، انفجـر وعـاء المـاء الوحيـد، تطاير الغبـار علـى وجوهنا.

اقتربنا من بعضنا وكنّا نقرأ القرآن ونسأل الله أن تمرّ هذه اللّحظة بسلام.

قرّرت أن نخرج جريا وأن نصطحبّ أم محمد معنا...

حاولت الاتصال بالجوكر المكان محاصر بالقذائف، الناس تتطاير وتجري كالفراش المبثوث، صراخ الأطفال زاد من التشويش على تفكيري.

أم محمد ترفض أن تأتي معي، وتقول لن أترك الأطفال وحدهم.

فجأة تدخل عربة مسرعة مدرّعة.. خلت أنها لحظة النهاية، تبادر إلى ذهني خوف عملاق، كيف أنتهي بهذا الشكل وأنا لم أبدأ أصلا، أيعقل أن أموت دون أن أبني اليوتوبيا خاصتي؟ دون أن أقدّم شيئا يذكر لغزّة يطهّرنا من العار؟

سمعت صوت الجوكر يقول: بسرعة إلى العربة..

فتح باب حديدي صغير، صعدنا الواحد تلو الآخر لكن التفتت إلى أمّ محمّد، وقلت لها اصعدي، رفضت في البداية أما الآن يبدو أن القذيفة ستنزل علينا بعد دقيقة أو دقيقتين.

حملت أطفالها وأطفال جارتها الشهيدة وصعدت معنا.

انطلقت العربة بسرعة البرق مسرعة جدا والرّصاص يتبعها..

الأطفال يصرخون، أخذت سمر تهدئ من روعهم، جوكر بدا مستمتعا بالمطاردة مثلما كان يفعل في غوثام..

حضر العديد من القنابل وكان يرميها على سيارات العدو التي وراء العربة المدرّعة.

تعجبنا كلّنا، من أين أحضرها؟

سأله الشيخ أحمد: يبدو أنك كنت تخطّط وحدك.

أجابه ضاحكا: لا تخف، فقد سبق وشكرت أمريكا، لقد تعلّمت منها شرّا كبيرا وها أنا اليوم أردّ لها صنيعها وأردّ لها ما علّمتني، كي أثبت لها أني تلميذ نجيب.

لست ذلك المهرّج الذي يرسب دوما ولا يحبّه الجميع ويخافه الكبار قبل الصّغار.

أخذت العربة تقفز فوق الصّخور والغبار وبقايا من خراب مخيف.

جوكر كيف صنعت القنابل؟

حملتها معنا، أتيت بها من البلاد.

ماذا؟ هل حملت معنا القنابل طيلة الوقت؟

أمزح فقط صنعتها البارحة تحسبا لأمر مثل هذا.

لا تنسي أنني المهرج الشرير، يعني أتوقع الشرّ أكثر من الخير.

آآآآآآآه جوكر، أرجوك أعلمني بكل ما تنوي فعله.

فجأة نصطدم بجدار صخري كبير، توقف الجوكر.

قال الجميع: «انزلوا بسرعة».

ترجّلنا من العربة وتبعنا الجوكر والبقيّة.

كانت مريم تسأل عن محمد بخوف كبير، أجابها خالد إنه بالمقرّ الجديد عند ملاك.

ماذا؟ كيف عرفت ملاك بالأمر؟

ردّت مريم ليست ملاك التي تعرفينها بل هذه جارتنا وهي قريبة حسن هي النّاجية الوحيدة من أسرتها، بقيت تعيش في ركام منزلها بأريحا.

دخلنا منزلا مقصوفا به مستودع كبير وسرعان ما دخلنا بدأت قوات الاحتلال تتزايد بالمكان وكأنها عرفت أن شيئا سيحدث أو أننا تهديد جديد...

دخلنا المستودع الذي يبدو غائرا في بطن الأرض، حتى ضغط الجوكر على زرّ أداة يحملها في يده فانفجرت العربة..

ربما حتى يموّه الاحتلال أو يفقد أثرنا.

كيف علمتم بمكاننا؟

تكلّم حسن وقال: «مروى أنت بغزّة والغزاويون يتوقعون كل شيء، دلّني أحد القادة على مكان أم محمد فأتيت ركضا، مريم آخر شخص أتوقع أن أفقده كما أنّكم أمانة عندي بغزّة لا يمكن أن أعرّضكم للخطر.

لكن جئنا لنموت في سبيل غسل العار الذي ألحقناه بأنفسنا يا حسن.

لم نأت إلى هنا لنصبح أبطالا صحيح، لكن ربما أنا من أتيت للبطولة كما تعلمين السخرية أيضا اختصاصي.

ماذا؟

نظرت ورائي وإذا بعمار يخرج من زاوية المستودع والطبيبة نور الهدى، ماذا؟

كيف وصلتم إلى هنا؟

قـال عمـار: المخاطـرة ولـدت معنـا بالبـلاد والسـخرية كذلـك مـن كل شـيء يكلّـف الحيـاة وكل مـا هـو ثميـن.

نور كيف وصلت؟

لا تسـألي كثيـرا نحـن الجزائريـون، مهمـا حاولـت البـلاد أن تجعلنـا بذلـك السـوء نجيـد أن نصنـع مـن أنفسـنا أناسـا يصلحـون لأن يفيـدوا بشـيء.

فرحت بوجودهم جميعا.

أخبـرت نـور أن تسـتدعي كل الأطبـاء الذيـن تعرفهـم وكل مـن هـو عاطـل عـن العمـل بالبـلاد الآن نحـن داخـل غـزّة بإمكاننـا أن نأتـي بالمسـاعدات حتـى ولـو كانـت علـى هيئـة تهريـب للسّـاخطين علـى وضعهـم بالبـلاد.

جوكـر لقـد بدأنـا نحقّـق مـا طمحنـا إليـه أولا وهـو إيجـاد حـلّ للإطـارات التـي تعانـي بالبـلاد مـن التهميـش والبطالـة سـيأتون إلـى غـزّة ويحظـون بشـرف العمـل هنـا، فغـزّة حتـى وهـي جريحـة ومنكوبـة لـن تتركهـم عاطليـن سـتمنحهم فرصـا ذهبيّـة.

جوكر والبقيّة عثروا على مكان جيد وقد نقلوا الأغراض كلّها.

كم هذا جبّار!

لكن سمر قدمها جريحة يجب أن أعتني بها قليلا..

جوكـر يتفحّـص قـدم سـمر ويضمّدهـا بعـد تنظيفهـا بالكحـول... إنهـا تتألّـم قليـلا لكنهـا مجبـرة علـى التحمّـل. سـيزول الألـم قريبـا، أراد أن يشـرف علـى مسـاعدتها ومداواتهـا بنفسـه ولـم يعـط فرصـة لهـدى كـي تعالجهـا.

يبـدو أن جوكـر صعـب التأقلـم مـع الغربـاء خاصـة إن كانـوا مـن البـلاد، حتـى عمـار لـم يستسـغه جوكـر كثيـرا، أحببـت أنـه ينافسـه فـي سـخريته

وينـزع منـه لقـب المهـرّج الملـك.
أخبرها الجوكر أن تكون حذرة.
توجّهنـا إلـى مـكان يقـع أسـفل المسـتودع بقليـل يبـدو وكأنـه خنـدق، حـدّق الشـيخ أحمـد وقـال لحسـن مسـاء اسـتدعي كل الشـباب الذيـن تعرفهـم سـنبدأ الليلـة لـن يطـول الأمـر.
نسـي الجميـع فـي خضـمّ المطـاردة والقذائـف والضيـوف الجـدد أن يرحبـوا بـأم محمـد وأطفالهـا.
خافت من الجوكر، قليلا قالت لي: « أليس خطيرا؟ هل تعرفينه؟».
علّقـت... أكـره كل مـا لـه علاقـة بأمريـكا فترامـب والنتـن ياهـو مـن أبـادوا غـزّة وقتلـوا كل الماضـي الجميـل ويسـعون أن يجعلـوا الحاضـر عقيمـا لا ينجـب مسـتقبلا لغـزّة.
لا تخافـي، جوكـر صديقـي تعرّفـت عليـه فـي البـلاد والحقيقـة أنـه أنـا مـن استدعيته.
ونـور صديقتـي الطبيبـة مـن البـلاد أيضـا أظـنّ أن كل مـا لـه علاقـة بالبـلاد فـي نظـر الغزاويين لا يبعـث علـى القلـق، لديهـم ثقـة كبيـرة فـي كل مـا هـو جزائـري.
على كل شكرا لحبّهم الكبير.
تقـدّم الجوكـر مـن أم محمـد مرحبـا وكذلـك ريـم ورحّـب الجميـع بهمـا ترحيبـا شـديدا وكان ترحيـب الجوكـر خاصّـا بمـا أنـه أمريكـي.
كأنه أراد أن يطمئنها..
تعرّف الجميع على بعضهم وأخذت أعرف الجميع بكل فرد جديد.

مسح جوكر على رأس الأطفال وقال لسمر: حضري شيئا يأكله الأطفال رفقة ريم.

تعجّبت كيف له أن يسمي ريم وهو بالكاد لا يعرفها.

شعرت ريم بفرحة كبيرة وقالت: «أحسست أني وسط عائلتي».

فرحت كثيرا.. هذا ما كنت أريده في البلاد تحقيق الوحدة والأمان.

تجمّع الشيخ أحمد رفقة البقيّة، وكان حسن يجري مكالماته..

القوّات تتجمّع في الخارج والغارات تزيد، لكن الحمد لله أن الجميع أحضر المؤونة معه وعمار جلب الكثير من المساعدات الغذائيّة والطبيّة.

سأسأله فيما بعد كيف استطاع أن يدخل هذا الكمّ دون أن يجد مشكلة.

أرى سمر تحضّر الأكل وأمّ محمد معها وريم... جميل أن أرى الأطفال سعداء بأكل لذيذ.

أرى أن الشيخ أحمد قد نسيني من الخطّة وكيف سيتصرفون؟

نسي أنني صاحبّة الفكرة النبيلة... كنت أكثر شخص يكره البلد ليس كتربة أو هواء بل كسياسة وتهميش وحقرة.

الشيخ أحمد تجمّع وبقيّة الشباب والمترجم وحتى الطبيبة ومريم يدرسون ماذا سيفعلون.. حسنا وإن لم أتجمّع معهم، أعتمد على الجوكر.

كنت لأذهب لألقي نظرة على المطبخ الذي نظمته الجماعة...

عجبا أنهم لم يحتاجوا للحريم ولو مرّة واحدة، نظموا كل شيء لوحدهم.

يـرنّ هاتفـي، إنـه رقـم لا أعرفـه وشـريحتي لا يعرفهـا أحـد، ولا يمكـن لأحـد مـن البـلاد أن يتّصـل بـي.

ألـو، ألـو... هـذا الصـوت أعرفـه.. قبـل أن يفصـح عـن نفسـه عرفتـه مـن يكـون، إنـه الرايـس هـواري، سـعدت كثيـرا كنـت أعـرف أنـه لـن يتركنـي لوحـدي، هـو دائمـا حـيّ وبخيـر لكنـه لا يقيـم داخـل البـلاد، يأتـي زائـرا أحيانـا فقـط.

كيف حالك؟

تحدّثي بالدارجة نحن تقريبا أبناء دوار واحد.

آه، نعم كيف حالكم؟

نحـن بخيـر، هربنـا اليـوم مـن غـارة كدنـا أن نقتـل ونحـن عـزّل مـن كل شـيء ولـم نحقّـق شـيئا.

أعلـم، كنـت لأسـأله كيـف علـم، لكـن الرايـس لا يخفـى عليـه شـيء، مخابراتـه أقـوى مـن مخابـرات الصهيـون.

لو كان معي لكنت منتصرة بفضل الله وقوّته لا محالة.

ضحك الرايس وكأنه يعلم النوايا، إنه مخيف بعض الشيء.

أخبرنـي أننـا رغـم كل شـيء سـننتصر... النـور سـيضيئ لكـم فـي نهايـة هـذا الطريـق.

يقـول أنـه قـد بعـث لنـا بمـدد يمكنهـم مسـاعداتنا بطريقـة شـاعريّة أكثـر لأن رفـع المعنويـات فـي مـكان كغـزّة خطـوة مهمّـة جـدّا.

سألته من يكونون؟

قـال: «تحبّينـه كثيـرا سـيكتب لـك جـزءا مـن قصائـده علـى جـدران مستودعكم الآن وعند كل خطوة تقومون بها لتعلمي أنكم لستم وحدكم كل الكـون الصالـح معكـم».

لطالما كنت صاحب ذوق يا حضرة الرايس.

هل ستتصل مرّة أخرى؟ وأين سي لمين؟ ليته أتى معنا.

قال سيقاتل معكم من هو خير مني ومن سي لمين؟

لا يمكننا مغادرة البلاد جميعا.

أغلق الرايس الخط وودعني بالسّلام.

كان الجوكـر شـديد الانتبـاه، لقـد انتبـه إلـى المكالمـة وسـط ذلـك الزّخـم مـن التفكيـر والتخطيـط والفوضـى الجميلـة.

بعدها تقدّم نحوي يسألني قائلا: «من المتّصل؟».

فأجبته: «لا أخفي عنك، لقد كان الرايس هواري».

الرايس؟ حقا؟

هل تقصدين هواري؟

نعم، جوكر أنا أيضا لم أصدّق.

وهل يعلم بما ننوي فعله؟

نعم، وطمأنني بالدّعم.

لكن لست أدري كيف؟

قـال إن أحدهـم سـيدعمني بشـعره وبوجـوده وهـذا مـا أحبّـه ومـا يمكنـه أن يجعلنـي قويّـة بعـد كلام الله.

وهل كان يوما الشّعر داعما؟

نعم، جوكر ربما بما أنّك مواطن أمريكي، لا تعرف شيئا عن الثورات الحقيقيّة والأدب الراقي والشعر الصّادق.

الشعر منذ عهد الجاهلية وسيلة للحياة، وبعدما أتى الإسلام كان الشعر لا يزال داعما وباعثا على الحياة بعد أن تصدّر القرآن مكانته الأولى، كان يستخدم كأداة لتحريك المجاهدين إلى ساحات المعارك والغزوات، ويدعو إلى التوكّل على الله والجهاد في سبيله.

هكذا إذن؟

نعم، حتى النشيد الوطني الجزائري نظّم إبّان الثورة والاستقلال، نظّم كي يحتفي بصنيع الثوار ويحفّزهم على القتال ضدّ خرنسا اللّعينة.

أنا إلى اليوم يا جوكر أقر أن وطنيتي تعاني خلخلة كبيرة منذ أن كبرت وجدت آباءنا يلعنون جور الحكام والحقرة والظلم، فبدل أن أكرههم كرهت الوطن، لكن عندما ترفع الراية الوطنيّة أمامي أو أسمع النشيد الوطنيّ حتى أجد نفسي أبكي وأحسّ بقشعريرة غريبة تجتاحني.

ربّما تلك هي الوطنيّة.

أجدني أنهزم عند كل حرف من الإلياذة والنشيد الوطني، وكأن مفدي لخّص ملحمة الجزائر كلّها داخل نشيد واحد.

لأن مفدي يا جوكر، لم يكن شاعرا مزيّفا يتقاضى أجرا حتى يكتب لوطنه، كان يكتب بوطنيّة متوهجة خالصة طاهرة، لم تمسسها آثار خرنسا الملوّثة.

ولم تخرّبها الأيدي السوداء.

جميل جدا، إذن سنأمل خيرا.

لا شرّ يأتي من الرايس، ليته كلّمني أنا أيضا.

لا تخف، إنه يبلغك تحياته.

كان الجميع منهمكين...

عمار «مترجم الخراب» كان يعدّ خطابات سميكة وثقيلة من السخرية بلغة أمريكا لترعب العدو، وأعطاها لجماعة في غرب جباليا، وشرق الشجاعيّة، وبقيّة المناطق حتى يسرّبها لصحفيين لتنشر في صحف دوليّة.

ذهلت من كثرة الشباب المتطوعين، داخل فلسطين وخارجها، ما كان يقوم به حسن جبّار لجمع وفود اليوتوبيا.

لكن كانت الأغلبيّة من البلاد وبعض البلدان الأخرى والقلّة القليلة من فلسطين الحبيبة، يبدو أنه لم يبق منها شيء، إنه عام ونصف من الطوفان اللّعين.

عمار لديه من النفوذ ما يكفي أن يكرّس ويجنّد المغرب العربي بأسره حتى يساند غزّة.

ليتني تعرّفت عليه قبل بناء الجزء الأوّل من الكتاب.

ربما كنت لأهذب أسلوبي ولتجنّبت السبّ والشّتم ونقد سياسة البلاد القبيحة، لأن عمار ببساطة يحبّ البلاد بشدّة ويفكّر في أن يجعلها أفضل مستقبلا، بالنسبة لمترجم ناجح وأستاذ إنجليزيّة متمكّن من اللّغة العربيّة بشكل خرافي يمكنه أن يبني أمّة في ظرف قصير.
أصبحنا نتلقّى المساعدات، لكن الغريب أنها تأتي من البلاد وحتى الأسلحة كيف يخون الجندي المصري أمانة رئيسه ويمرّرها لغزّة ؟
نور الهدى تتحدّث إلى جميع من تعرفهم داخل البلاد وحتى خارجها حتى ينظموا فغزّة فقيرة من الطواقم الطبيّة.
الشيخ أحمد يزرع في كل واحد فينا يقينا وحسن ظنّ بالله من شأنه أن يكون وقودنا مكان الأكل والشرب والنوم.
الشيخ أحمد لديه ثقة كبيرة بالله، يحاول تهدئة ذعر غزّة قبل ذعرنا.
يحاول أن يغرس في غزّة ما تمّ تدميره واقتلاعه أعواما ودهرا من الدمويّة والوحشيّة والخيانة العربيّة، والتهجير والتجويع والتنكيل.
الحمد لله على قوّة كهذه، فالشجاعة أيضا نعمة، لو كنّا جبناء لاختبأنا داخل الجحر في البلاد أو في قصر الرئاسة واستمرينا بنسج خطابات من خيوط العنكبوت حتى تعلق بها كل نيّة بالمساعدة لإخواننا في فلسطين ورؤية أهلها جياعا ونحن الذين قال عمر عنّا رضي الله عنه: «لا يمكن لطير أن يجوع في بلادنا»، وفي الأخير نتحجّج أن العنكبوت لا يستحي وإنه سفّاح عظيم.

أم محمد نسيت أمر الحرب في ثانية من الحضن الدافئ والالتفاف الصّادق ورؤية طفلها وبقيّة الأطفال يأكلون.
سمر تعرّفت إلى ابنة جارة أم محمد الشهيدة تدعى «ضحى» وأخرى تدعى «فجر» والابن الوحيد المتبقي لها يدعى «فلاح».
أما ريم فقد كان وجهها البهيّ يتابع الجوكر ويتابعني بخوف، رغم أني طمأنتها أنّنا لا نحمل شرّا وأنه صالح رغم جنسيته الأمريكيّة.

إلا أنها ظلّت متوجسة منه.
لا أستغرب ردّة فعلها، إنه مواطن أمريكي وكل ما له علاقة بأمريكا يدعو للريب والقلق، وكل ما ينتمي لها منبوذ ولو تاب ألف مرّة.
كانت تساعد أم محمد وسمر وهي تراقب الجوكر عن كثب.
أحسّ أنها منزعجة منه دون أدنى سبب يذكر.
أتمّ الجميع الاستعداد لهذه الحرب، حرب البعث والفوضى.
حسن صنع راديو يدوي تقليدي بمساعدة أحد الشّباب المتخصصين في المجال، كما أن حسن أحسن إحكام التسيير والصّنع حيث تمكّن من استيراد برنامج من عند أحد الأصدقاء يمكنه من اختراق بثّ العدو والتجسّس عليه والتحكّم بالدرون المستطلعة.

جوكر أيضا بارع بتصميم القنابل، وماذا تعلم أمريكا؟
كنت مسؤولة عن إعداد الخطابات لينشرها عمار على جدران غزّة وفي رسائله للصحف الدوليّة.

مشـروع اليوتوبيـا بـدأ يتقـدّم، سـنجعل تيكيـات الإطعـام الخيريّـة؛ جنّـة لأطفـال غـزّة وأهلهـا وجحيـم للعـدو، سـنجعلها مكانـا لتبـادل الرسـائل وزرع القنابـل والألغـام وتفخيـخ خطـى الاحتـلال الكلـب.
سنشبع البطون أخيرا، مللت رؤية مناظر التجويع.

بعدها سيبدأ العمل الحقيقي الآن.
نظّمنا ما نحتاج إليه من مؤن وأخذ كل واحد منا ما يدعمه.
سـنضمن وفـودا طبيّـة وميكانيكييـن وأسـلحة وحتـى مدرّعـات إن لـزم الأمـر، ومثقفيـن كمترجـم الخـراب كلّنـا جميعـا سـنعمل علـى جمـع كل مـن نعرفهـم خـارج غـزّة.

نحتاج أيضا إلى سياسيين بارعين ومواطنين متمرّدين مثل الجوكر.
مثلمـا نحتـاج أن نرتـب هجومـا عسـكريّا، نحتـاج أيضـا أن نرتـب هجومـا فكريّـا ودينيّـا.

أمـرت سـمر أن تخـرج البـذور التـي أحضرتهـا مـن البـلاد وخاصـة غصـن الزيتـون الجزائـريّ، وأن تغرسـهم بـكل مـكان بقـي فيـه رمـق أخيـر علـى قيـد الحيـاة.
اقتـرب منـي الجوكـر وقـال: «تقريبـا أنهينـا كل شـيء وغـدا سننقسـم إلـى أفـواج ونغـادر».

كيف؟

ماذا تقصد بالانقسام؟

لماذا؟ هل هذا ضروري؟ أرى أن العمل معا أفضل.

مروى، هذا ليس في صالحنا، علينا تشتيت العدو.

الانقسام أفضل، سنظلّ معا في كل الأحوال، لنصبح أكثر قوّة والأمر موكل بك.

دائما تجعلني المسؤولة.

اتفقنا.

قبل أن أقسّم المجموعات، أريدك أن تكون في مجموعتي.

حاضر، لا تخافي.

حسنا.

المجموعة الأولى: «أنت، أنا، ريم، سمر، خالد».

المجموعة الثانية: «مريم، أم محمد، نور».

المجموعة الثالثة: « الشيخ أحمد، حسن، عمار، علي».

أمّا الأطفال سيظلون مع جارة حسن وقريبته ملاك لنطمئن عليهم خاصة الرّضيع محمد.

لكن جوكر، هل يعلم الجميع بفكرة التقسيم؟

نعم، لا تخافي فقد تعلّمت المشورة منك.

جيد، أحسنت.

هل أعجبك التقسيم؟

نعم، يبدو مناسبا جدا.

فلنتوكل على الله إذن.

تقدّم عمار نحوي وقال: « اللّيلة سنغادر».

أي المجموعات تريدينها أن تغادر؟

اختاري اثنتين.

حسنا، المجموعة الأولى والثانية ستغادر اللّيلة وما تبقّى غدا.

قال عمار: « سنتجه لخانيونس هناك مستودعات أعدّها حسن مع عدد هائل من جنود كتائب القسام، المستودعات في أنفاق تحت بيتهم القديم، المستودع الأول مستودع «النصر» سيكون للمجموعتين الأولى والثانية ومستودع السنوار سيكون للبقيّة والأطفال وملاك سيظلون هنا.

لكن عمار أرجوك، أمّن طعامهم وخاصة حليب محمد.

اتفقنا سأرتّب كل شيء، لا تقلقي.

شكرا لك.

كل شيء جاهز بمكانه، وأكيد يجب أن نظلّ على اتصال وعلم بالأخبار وكل شيء، قريبا ستنقطع الأنترنت وسنواجه صعوبة.

حاضر.

لا تنسى حمل الخرائط وما أعددته رفقة الشيخ أحمد.

لا تخافي.

تقدّمت ريم نحوي وكأنها منزعجة من وجود الجوكر معنا، عدت لطمأنتها من جديد.

لا تخافي تعاملي معه بنيّة طيبة ولا تنخدعي بمظهره الأمريكي.
حسنا، لك ذلك.

أخبرت أم محمد بضرورة الاتصال إن أمكن بملاك فادي حتى تنضمّ لنا ونطلعها على مشروع اليوتوبيا وهذه الحرب النبيلة، خاصة في مسألة الترتيبات للتيكيات حتى نضرب عصفورا بحجرين.

فصل التنفيذ وبداية الحرب النبيلة

(إنه المشروع العظيم يبدأ الآن، هذه الأنفاق ستؤتي أكلها بعد قليل لا فائدة من تفجير الطوفان ومحاربة الهدوء بالمفرقعات والاختباء في الجحور وترك المدينة تغرق بالطّوفان، ليس هذا هو الجهاد ولا المقاومة ولا حبّ الوطن، الذي يعلن الطوفان ينهيه وإن لزم الأمر السباحة فيه يقود السفينة إلى برّ الأمان ويصنع قوارب النجاة والحياة، ويحفر خنادق وصدوعا يسقط فيها الاحتلال ليس أن يترك المدينة تدفع ثمن ساعة الصفر).

بدأنا التنفيذ هذه اللّيلة، غادرت المجموعتان بحذر، اتصل عمار وحسن على الشباب فدخلت عربات مدرّعة عبر الأنفاق، أثنيت على الشّباب حسن التخطيط والتدبير وبهذه السرعة.

قمت بتوديع البقيّة بحبّ وثقة وهدوء وقبّلت رؤوس الأطفال وقبلة للرضيع محمد، حملت معدّاتنا إلى وجهتنا التي رضيها الله عزّ وجلّ، توكلنا عليه وإليه ننيب.

طلبت مصحف الشيخ أحمد حتى أقرأ منه إن باغتني الخوف.
كبرنا جميعا واتصلنا عبر الإنترنت بأهالينا لنطلب منهم ربّما قبلة أخيرة.

ركبت رفقة الجوكر وريم، سمر، خالد، مريم وأم محمد وطلبنا من ملاك قريبة حسن أن تعتني بالأطفال وألا تخاف فالمكان آمن.

لم نأكل سوى لقيمات على العشاء وهذا حتى نحافظ على المؤونة، الآن أدركت حجم مأساة ومعاناة أهل غزّة، الجوع عدوّ كبير.
تذكّرت البارحة ما رأيته من مقاطع على هاتفي الأطفال والكبار يموتون في حرب التجويع اللّعينة الكافرة.
والآن هم وقودي حتى أوقف هذا الدّمار، وما رأيته أمامي أفظع من التقارير الصحفيّة اللّطيفة، ومن شاشة الهاتف المتبرّجة.

المناظر مأساوية للغاية.
رؤيــة هـذه الجرائـم تجعلنــي أتمنــى لــو كان الاحتــلال رجــلا واحــدا لأفنيتــه، وأبـدت بأثـره مـا تبقّـى منـه مـن هنـا حتـى أمريـكا اللّعينـة وكل دولــة عربيّــة خائنــة.
انطلقنــا ودعــت المــكان وكأن الغيــاب سـيطول، سـنتوجه إلــى مسـتودع النصــر أيــن سـيبدأ المشـروع الحقيقــيّ والحلـم الأكبـر.
جوكـر ينظـر أسـفل قدميـه، قـال: «ليتنــي أحضـرت حذائــي الأمريكــي حتــى أدوس بــه ظـلّ أمريـكا هنــا وأتباعهــا».
الجميـع متأهبـون يتفقّـدون المعـدّات والأغـراض التــي نحتاجهــا قبـل أن نبتعـد كثيـرا، والأجهـزة اللاسـلكيّة التـي وفّرهـا عمـار وحسـن، لقـد اتّضح أن عمـار لـم يبـرع فـي الترجمـة وتدريـس الإنجليزيـة فقـط، بـل إنـه معلـم الخـراب أيضـا وعمـلاق الثـورة.

جوكـر يخـرج القنابـل، إنـه يتفقدهـا تلـك التـي صنعهـا بـكلّ انتقـام ويضعها بأمـان ولطـف فـي الحقيبـة، ثـم قـال لخالـد ضاحـكا: «علـى مهلـك وإلا انفجرنــا هاهاهاهاهاهــا».
جوكر الجميع متوتر، هلا التزمت الصّمت من فضلك.
حسنا، أحاول فقط كسر هذا الصّمت الثقيل.

أخـذت هاتفـي حتــى أتصـل علــى الشـيخ أحمـد وأوصيــه مجـدّدا علــى الأمانــة التــي تركناهــا هنــاك خاصــة الأطفــال، رغـم أنــي أعلـم أنــه

حريص جدا إلا أنني أجدّد دوما توصياتي فالأطفال كانوا أكثر من دفع ثمن هذه الإبادة.
تبّا لحقوق الإنسان والمنظّمات الكاذبة، تبا لحماية الطفولة وحقوق الإنسان إلى الجحيم جميعهم.
حتى بدت رسالة مع رقم مشفّر على هاتفي.
مهلا إنها مقطوعة أو شيء من الشّعر، بدأت أقرؤه يقول: «ولا نخشاه رصاصك الدّامي، ولا يزعزعني الإرهاب، فالشّعب يعرف بتضحيته».

آمني بقدسيّة الثورة، فليبارككم الله وليجعل اليوتوبيا نصرا يتحقّق.
محمود درويش
ماذا؟
رسالة من درويش؟!
أفضل شاعر لي، تذكرت هذا ما قصده الرايس بكلامه نعم، إنه دعم عظيم من السيد الشاعر درويش أن يرافقنا بكلماته في هذه الحرب النبيلة.
شكرا للرايس العظيم.

نعم، هنا الكلمة أقوى من الرّصاصة والشّعب هو السّلاح، هو إيمان من نوع آخر، هو الشيء المقدّس على وجه غزّة الطّاهر، انضمّ الجميع لهذه الحرب وهم جياع ومتعبون ومرهقون من المسير، وهم يهتفون باسم الجنّة، باسم الخلد.

شعب فلسطيني عظيم، لا جوع ولا عطش يضنيه عن هدفه، عن الثورة، عن المقاومة ويبعده عن الوطن، على حدّ قول درويش: «سأصير يوما ما طائرا وكلّما احترق الجناحان اقتربت من الحقيقة».

فلسطين حياة يجب استرجاعها ولو بنقيضها، وليست فقط مدينة هي امرأة حرّة ومن العار أن تصير بين السبايا.
ستكون هناك فوضى كبيرة سنشوش على العدو، سنسرق منه حتى أنفاسه.
سننشر الخطابات المرعبة، سنقلب العالم ضدّه، ونجعل أشباح الأطفال الذين ماتوا جياعا تطاردهم كلعنة أخيرة وتخرجهم من أرضهم.
سيعود محمود درويش وفي يده الحمامة البيضاء وغصن الزيتون ويطردهم من أرض المقدس.

مشينا طويلا داخل نفق مظلم، أخبرت الجوكر أن درويش قد حدّثني على طريقته وما أعذب شعره! بدا النفق مخيفا جدا، جوكر يفكّر كثيرا.
سألته: لم كل هذا التفكير؟
فأجابني: «الأطفال، أخشى عليهم».
لا تخف، الله معهم.
بدا الجوكر حساسا جدّا، أوّل مرة أراه عاطفيا هكذا اطمئن هم في حفظ الله كما أن ملاك ترعاهم.

كنا نسمع تردد الانفجارات خارجا وبعض التراب يتساقط جرّاء قذائف عنيفة، هذا النّفق بدا متفرّعا ومظلما جدا، كان خالد يقود مسرعا دخل طريقا مظلما جدّا، حجارة كبيرة.
المكان كان باردا لدرجة أحسست العربة متجمّدة.

أخيرا وصلنا إلى مستودع النّصر، كما قال عمار كان بيت أهله الذي قصف.
أعانه الله، وربط على قلبه في فقده ومصابه.
فور وصولنا كان المكان مرتبا جدّا، قال خالد: «حسن، اهتمّ بكل شيء».
نعم، أرى ذلك بارك الله له وفيه، سنجهّز أنفسنا ريثما يلتحق البقيّة.
ارتحنا قليلا، اتّصل حسن بخالد وقال بعد لحظات سيلتحق بكم القائد «مهدي» ومعه مجموعة من الشّباب، وكذلك مجموعة من الأشبال الصغيرة المتعطّشة للانتقام.
ارتبكت قليلا، قال خالد لا تخافي سنكون معا، لست وحدك.
إنها حرب إبادة يا خالد، يجب أن نمسحهم، حرب تطهير للعرق الفلسطينيّ، لن نسمح بإطالة عمر هذه المجزرة حتى الأطفال يريدون حماية نسلهم الأخير الذي تركه الاحتلال اللّعين محاصرا بالمجاعة.
انطلقت مهمتنا الآن بثبات.
قمت بكتابة كل ما من شأنه أن يرحبّ بالرّعب في كيان الاحتلال أمريكا وإخرائيل وبقيّة المتعاونين لا يخافون الأسلحة والنووي فقط؛

بـل أخطـر مـا يخافونـه الوعـي والديـن والثقافـة والوحـدة والتمسّـك بالهويّـة.

اتخذنـا مـن عـدّة أحيـاء فـي جباليـا والشـجاعيّة وخانيونـس وبيـت لحـم مراكـز لتنفيـذ عمليتنـا ومشـروعنا النبيـل، واتّخذنـا مسـجدا مهجـورا ومدرسـة تقـع بحـيّ جباليـا الواقـع فـوق أنفاقنـا السـريّة، لقـد خطّـط حسـن بـذكاء كبيـر واختـار أن تكـون المواقـع قـرب بيتهـم المقصـوف وكأنـه يريـد أن يجعـل ذكـرى وأرواح أهلهـم الشّـهداء تشـهد علـى هـذه الحـرب النبيلـة، وذلـك حتـى يتأكـد أنهـم يرقـدون بسـلام.

توزّعـت المجموعـات والطواقـم الطبيّـة أخـذت مواقعهـا وكذلـك الميكانيكيـون والمتخصّصـون فـي الأسـلحة والتجسّـس، وتـمّ التنسـيق مـع كتائـب القسـام.

كان المسـجد معقـلا لتجنيـد أحلامنـا وأهدافنـا بشـكل كبيـر حتـى نجهـز علـى الـكلاب الصهيونيّـة.

مضـت الليلـة كلّهـا فـي الترتيـب، وتنظيـم الفـرق والأسـلحة ونصـب أجهـزة التشـويش والتجسّـس، وكان أوّل مـا فعلـه منصـور زميـل حسـن الـذي يعتبـر هاكـرا محترفـا هـو اختـراق أجهـزة العـدو والاسـتيلاء علـى الـدرون والتشـويش عليهـا حتـى نسـهّل تحرّكاتنـا وعبورنـا.

قـدم الصبـاح يرفـل مسـرعا وكأنـه هـو الآخـر يسـتعدّ للمقاومـة معنـا وشـنّ الحـرب.

اتصلت على الشيخ أحمد وفهمت من كلامه أنهم تحركوا للمغادرة والانضمام.

هل أنتم بخير؟

نعم، والأطفال؟

الحمد لله.

هل تأكدت من طعامهم وشرابهم؟

نعم، وتركت معهم عمار حتى يؤمّن دخول المساعدات رفقة الشباب القادمين من البلاد.

والتنسيق رفقة حسن للوصول إلى التيكيات وضمان الموقع الجيد مع الحذر الشديد.

أخبرت عمار أن جدّي أيضا ترك قبره وهو في طريقه إلى هنا.

بدأنا بالخروج وعلي وبقيّة الشباب يحاولون تفقّد المكان، منصور يتحكّم بالدرون والاحتلال لم يتفطّن بعد، يبدو المكان فوضويّا جرّاء القذائف والجرحى وصراخ الأطفال والنّساء، وكانت صفّارات الإسعاف لا تتوقّف كما أن القتال على طوابير الأكل والطّحين يشكّل فوضى بل جحيما يكفي كي نبدأ بزرع القنابل في الأماكن المهمّة والحسّاسة.

تولّى جوكر مهمّة تشتيت الاحتلال وإثارة فوضاه الخاصّة، هو متعوّد على هذا، المطاردة هنا ليس كالمطاردة المملّة داخل فيلم باتمان.

بدأ الرّعب...

سيصرخون بدل أطفال فلسطين، تمّ التنسيق بيننا في أماكن القنابل حسن أخبرني أن التشويش صار كليّا الآن، تم اختراق كل تردّداتهم وموجاتهم بنجاح وحتى الأخبار التلفزيّة على قناتهم، إنه ينتظر أن أعطيه إشارة لتمرير خطاباتي وخطابات درويش وآمال عواد رضوان وعمار، أريد أن أبعث لهم بقصيدة الحرب النبيلة وخطاب اليوتوبيا الجديد.

بدأ الاحتلال يعلن حالة الخطر، بدأ يحتشد حان دورنا الآن، سيضاعف القذائف والغارات ولن نرحمه بعد الآن.

إليك الخطّ حسن، مرّر كل خطابات التهديد والموت.

كان عمار بطلا حقيقيّا لأنه تمكّن من إدخال كلّ ما نحتاج إليه من البلاد وتونس الشّقيقة.

نور في المستشفى المهجور رفقة الأطباء من البلاد، أولئك الذين تمنّوا أن يسعفوا حلمهم بالبلاد ويداووا جرحه، وها هم اليوم مجنّدون ليداووا جرح الأمّة هنيئا لهم.

عمار يجب أن تحرص على تغطية المساعدات الغذائيّة والطبيّة، والبقيّة سيؤمنون التحرّكات وتنقّلنا ويبدؤون حرب الرّصاص النّبيل.

سألت عمار ونحن تحت وطأة الهجوم لأن الاحتلال دنيء ولا يعرف إنسانيّة، لقد التقط رائحتنا وها هو يهجم ككلب مسعور.

أمّنا كل الطرق، أخلينا البيوت من أهلها وخاصة الأطفال هناك من الأنفاق ما يكفي لتهجير غزّة تحتها.

كيف لك بإدخال كل هذه المساعدات؟

مصر أكبر عائق عن دخول الهواء لغزّة؟
اخفضي صوتك حتى لا يسمعك السيسي.
خاطر بعض الجنود المصريين بحياتهم وإنسانيتهم ووافقوا على مساعدتنا ليلا، عندما تنام عين الحاكم وتغطّ الحكومة في سبات عميق.
آآآآآه، شكرا للسيسي على تنصيبه لجنود بهذا الوفاء على المعبر، كنت أعلم أنه رجل جيد.
أنهي هذا الحديث الآن فلنذهب.
كثر الدويّ وزاد عدد الدرون قوات الاحتلال تتزود بمدرّعات كثيرة، صوت الرّصاص بدا كالوابل.
بدأ اللعب الحقيقي الآن.
بدأ الليل يقترب ليصعّب الاشتباك أكثر ويتولّى النهار خطتنا للغد ويبدأ نهار آخر.
حسن يخطّط رفقة جنود من كتائب القسام في ضرب إخرائيل بصواريخ باليستية وحشد كل ما يستطيعون من قوّة بشريّة وسلاح وعتاد.
عبرت عبر النّفق بسيّارة عمار وسمر إلى جانبي نحو مستودع السنوار حتى أذكّر أم محمد بعملها رفقة مريم وريم.
العمل بالتيكيات والتنقّل لخانيونس بعيدا قليلا عن الدمار هنا وزرع الخوف هناك وتفجير الثكنات الإخرائيلة هناك ومستوطنات التعذيب وتحطيم طوابير الطحين الدمويّة وإخلاء سبيل المعتقلين رفقة حسن والكتائب، والبقيّة سيتولون الأمر هنا كما أمر حسن.

مـلاك النجـار تسـهر علـى إعـداد الطعـام للثـوّار والأطفـال وأحيانـا تسـاعدها أم محمـد ليـلا، لأنهـا نهـارا مكلّفـة رفقـة مريـم وريـم الجميلـة بتأديـة أدوار أخـرى وذلـك أن النسـاء بطـلات أيضـا يؤديـن جميـع المهـام بقـوّة وشـرف كمـا كانـت تفعـل حرائـر الجزائـر.

قالت سمر يكفي أننا أحفاد لالة فاطمة نسومر وجميلة بوحيرد.

نعـم يـا سـمر، يكفينـا فخـرا أننـا أحفـاد ثـوار ومجاهديـن يعتـدّ بهـم العالـم أجمـع وبثورتنـا المجيـدة.

دخـل الجوكـر ألقـى السـلام سـألنا عـن أحوالنـا، أخـذ كميـة كبيـرة مـن الأسـلحة وأخبرنـي أنـه متوجّـه إلـى المسـجد، ذلـك النّفـق العظيـم تحتـه قـد هيأنـاه لثورتنـا المجيـدة، قـال سـتبدأ الفوضـى الحقيقيّـة.

مـا إن بـزغ الفجـر حتـى رفعنـا أذان التحـدي والجهـاد، بـدأت هجومـات اليوتوبيـا، التشـويش يـأكل كل أجهـزة العـدو، الخطابـات تنـزل واحـدة تلـو الأخـرى.

بـدأ الانفجـار العظيـم، الأماكـن تنفجـر واحـدة تلـو الأخـرى، كل واحـد منّـا اتّخـذ مكانـه، الجـوّ تعتّـم بالكامـل، النّـاس تهـرب تحـاول مجموعاتنـا تأميـن الأرواح قبـل كل شـيء.

العدو يقصف بعشوائيّة وعدوانيّة، كنّا مدّرعين ونتحرّك بحذر.

تراجعنـا إلـى الدّاخـل نحـن النسـاء بعـد أن زرعنـا الألغـام وفجّرنـا عديـد المدرعـات وكانـت أوامـر الجوكـر لنـا تفضـي بـأن نعـود أدراجنـا إلـى النّصـر والسـنوار لنؤمـن النسـاء والأطفـال والشـيوخ وإخـلاء كل مناطـق الحـرب.

نعم، كان هذا أعظم دور نؤدّيه؛ أن نحميهم ونطعمهم.
كما كانت تفعل نساؤنا إبّان الثورة الجزائريّة المجيدة، عمار في الموقع السليم كان يساهم في تفجير الصّمت خارج غزّة، لهذا أخبرتكم سابقا أن الحرب تعتمد أيضا على المثقفين.
كنّا نوفّر الحماية والإطعام ونستقبل المساعدات التي يؤمنها الجماعة رفقة عمار.
ونكتب ونصدر خطابات ونصادر الرّسائل الزرقاء والحمراء إلى أمريكا وبعض الخونة.
كنّا نغذي القضيّة خارج غزّة، واستطعنا أن نرسم لها مسارا خاصّا ومقدّسا.
يبدو أن الحكومة الإخرائيلية في حالة استنفار وخوف، والنتن ياهو كعادته يزداد شراسة ويبدأ اللّعبة القذرة.

(استمرّت الغارات والهجومات العنيفة والاشتباكات، بدّدنا جمع العدو وفرّقنا شمله، بذلنا طيلة سنوات ثلاث ما استطعنا، جرحنا وتعرّضنا للهروب من الموت وبكينا أحيانا، لكن المؤمن بطبعه قويّ. بعد حرب هزيلة للعدو وعظيمة لنا أنجبنا الكثير من الصّمت، من الانتصار، وتمخّض العدو مرارا ليلد خذلانا وهوانا، كدت أخسر سمر والشيخ أحمد في هذه الحرب وأكتب الآن كناجية لا كمحاربة ولا كمواطنة جزائرية كتبت لتقول خضت الحرب بطريقتي الخاصّة حتى يغفر لي الله تقصيري وصمتي وتغفر لي غزّة السكوت والهوان،

تعرض خالد للاختطاف والاعتقال وكان نقطة ضعفنا آنذاك كدنا نفقده ونفقد معه حلم الرّحلة والمشروع، أقف الآن كناجية وشاهدة لم يكن الأمر سهلا لم تكن الحرب كما تتوقعونها داخل غزّة كل شيء مختلف حتى الدّم رائحته مسك والموت لا يخيف هنا أبدا ليس كما نتخيله داخل الوطن، حاربنا جميعنا لكن الجوكر أثبت أن أخطر ما يمكن للمجتمع أن يصنعه مهرج متمرّد، بإمكانه حتى تحطيم الوطن الذي أنجبه، كان يقتلهم دون رحمة، كان يلعن أمريكا، كان يرى في صورة ترامب والده الذي حوّل وجهه لكومة من ندوب مخيفة، وها هو اليوم يؤدّي الدّور الأعظم فينا ويرسم ابتسامة عريضة على وجه غزّة، بينما يحدث ندبا قبيحا على وجه أمريكا وإخرائيل، هنا بدأت الحرب تتعب وتضع أوزارها وبدأت ملامح اليوتوبيا تلوح في الأفق، حتى جدّي رحمه الله لقد سقط شهيدا وكان أعظم ما خسرته في هذه الحرب النبيلة، كان له الشرف أن يدفن في غزّة، استشهد العديد من البعثات الطبيّة الجزائرية ومن الدول الشقيقة، اشتد الزّحف وامتدّ إلى أوسع نطاق، إلى الآن أكتب والنصر يجرّ ثوبه العظيم نحو بوابة اليوتوبيا الكبيرة، إنها تبدو في نظرك لحظات من التحرير ولكنّها بالنّسبة لنا كانت عمرا وسنوات لم أنتبه لها حتى رأيت محمد يمشي.

بدأت ملامح غزّة تتغير وتميل أرضها إلى الخضرة وسماؤها إلى الزّرقة، بدأت أسمع صوت العصافير وأشمّ رائحة الجنّة، بدأت أرى الأطفال يضحكون ويأكلون لقد أزهرت فلسطين بعد دهر من الظلام والظلم والدّماء ومسيرة من العذاب، لم أكن أريد أن أطيل عليك مشاهد الحرب ولا وصفها فهي أبشع ما ينقل أو يكتب، لم أكن أريد أن أطيل التحرير بالتفصيل فالهدف من هذا المشروع أشياء كثيرة يمكنك أن تكتشفها لوحدك، لكن ليس الهدف من كل هذا تعريف الحرب أو شرح كيفية القتل أو وصف رائحة الدّماء).

في صباح حربيّ خفيف وجميل، يبدو أننا أصبحنا نستمتع بالحرب والألم، كنّا نعدّ لهجوم جديد لمسح القوات الإخرائيلية بشكل نهائي، ارتدى جوكر مساحيقه وارتدى دور المهرّج الشرير حتى ظنّ الاحتلال أن أمريكا من سلّطت عليه هذا المسخ.

وبعض المرتزقة من الدول العربية وخاصة الجزائر، كان تدخّل الرايس واضحا وقويّا، وهذا لأجل حماية البلد من هجوم لاحق، فنحن كما نعلم الجزائر محطّ أنظار أعداء كثر.

اليوتوبيا بدأت تتّسع، سيطرنا على كثير من المناطق واسترجعنا معظم المقاطعات والأسرى، أنهينا أزمة التجويع وحقنّا الدّماء، عمار ألهب الرأي العام واستطاع أن يضمّ صوت العالم لثورتنا.

إنه النصر يا الله.

فجأة وأنا أحمل الأسلحة عبر الشارع الرئيسي لجباليا المؤدي للمركز التجنيدي رفقة ريم انفجرت فوقنا قذيفة غادرة من الاحتلال، أصابتني في ذراعي فأحدثت شرخا كبيرا غائرا، وأصيبت ريم بجرح خطير في قدمها انفجر منه الدّم بشكل مخيف.

أصبت بالذعر وكنت خائفة من أن يلقي الاحتلال القبض علينا لأننا جرحى ولا نستطيع التحرّك، سقطت ريم متجمّدة وبعد دقائق فقدت وعيها، اجتاحني خوف كبير وأنا أيضا أقاوم الألم الشديد بذراعي وهي تنزف بشدّة.

حاولت أن أعيدها إلى وعيها لكن دون جدوى، لم يكن أحد إلى جانبي،

اتصلت بالجوكر...

بالكاد وأنا أتعرّق وأتألّم وبدأت أحسّ بالدوار، لم يرد، يبدو أنه منشغل بالحرب.

تركت له رسالة بالكاد كتبتها أخبره بمكاني وبوضعنا الكارثي.

الحمد لله على كل حال.

حاولت أن أجرّ ريم أو أحملها إلى مكان آمن، لكنّي صرخت صرخة مدوية ذراعي، يا إلهي ألم فظيع. أردت البكاء لأني لم أتمكّن من فعل شيء، كنت أقاوم الإغماء وحاولت بعد قوّة كبيرة أن أجرّ ريم، لكن لم أتمكّن من الوصول لمكان آمن، يبدو أن التعب والألم تمكّن مني، أشعر بالإغماء والدوار.

خفت كثيرا كنت أحاول أن أتفقّد المكان وأدعو الله أن لا يراني الدرون اللعين شيئا فشيئا حتى شعرت ببرودة شديدة وتوقف الألم فجأة، شعرت بأني اقتربت من الجنّة لقد كانت البوابة مليئة بالناس، اقتربت أكثر إنهم أهل غزّة يتزاحمون وكلّهم يرتدون الأبيض ويحملون شرابا شفافا، رحبّوا بي جميعا وكانوا يشكرونني كنت حينها أمسك بيد ريم، ثم لمحت الجوكر هناك يرتدي مثلهم نظر إلي وابتسم ودفعني خارجا قائلا: «لازال الوقت مبكرا، ستأتين إلى هنا في الوقت المناسب».

أفقت فوجدتني مستلقية على الأريكة المهترئة ببيت حسن الذي صار أجمل من السّابق، ولم يعد نفقا وفوقي منشفة مبلّلة ونور جالسة إلى جانبي تضمّد يدي، صاح الجوكر: «لقد أفاقت، الحمد لله». وأخذ يطمئنني .

نور كانت تخيط ذراعي، أحسّ بألم فظيع وكأني لم أتلق مسكنات.

فزعت، تذكرت ريم كنت سأقوم من مكاني فحاول الجوكر تهدئتي قائلا: «ريم هناك، انظري إنها بخير وستستعيد وعيها الكامل خلال لحظات».

هي الأخرى قد خاطت طبيبة قدمها ووضعوا لها لوحا لأنها مكسورة والمحلول الوريدي معلّق بيدها ووجهها أصفر.

جوكر كيف؟ من الذي وجدنا؟

رسالتك المرعبة.

لقد كاد قلبي يتوقف.

لا يهمّك الآن، كل ما يهم أنك بخير.

حاول جوكر الاقتراب من ريم وتهدئتها ومحاولة التخفيف والاطمئنان وكأنه يحاول أن يعدل بيننا.

ريم سألت عني، وعن حال الأطفال وكانت تتجاهل الجوكر، هي منذ البداية لم تكن تستسيغه.

أم محمد: أين وسمر والبقيّة؟

إنهم بخير كل بمكانه وأم محمد تعدّ لنا طعاما شهيّا رفقة مريم، سمر تكتب مدوناتها رفقة ضحى وفجر والأطفال متحلقون حولهم.

جميل جدا.

هذه يوتوبيا السلام التي حلمت بها.

أحسّ بالجوع، لم نأكل سوى لقيمات لأيّام.

أحسّ الجوكر بالخجل من تجاهل ريم له، فانصرف وودعني ليذهب إلى عمار والبقيّة.

نظرت إلى ريم نظرة عتاب خفيف، أشاحت بنظرها عني وقالت وهي تبدو خجلة: «آسفة، لم أقصد أن أؤذيه».

ريم امنحيه فرصة حتى يعرّفك على قلبه ونفسه.

كان الشيخ أحمد ملطّخا بالغبار وآثار الهجوم الصباحي، أعدّت له سمر الحمّام بالفناء.

كان ممتنّا لفضل الله علينا بهذه الحرب.

كانت الكتائب رفقة حسن ومنصور ومهدي وعمار أيضا تقوم بعمل رائع تقاوم وتحارب حتى لا يبقى للاحتلال أثر، رغم أن الأمر يبدو صعبا.

ممتنّة للجوكر ولكل ما فعله، الأمر خطير عندما يقرّر مهرج أن يلعب لعبة الشطرنج بالمقلوب، هذا ما لا تدركه أمريكا اللّعينة.
كنت لازلت أعاني من الألم وذراعي الأيسر لا يسمح لي بالتحرّك كثيرا،
طلبت من مريم أن تعتني بريم جيدا.
وحاولت الوقوف حتى أجهّز الخطابات وتحرير الجريدة الجديدة سميتها جريدة الزيتون.
ساعدني عمار كثيرا فقد كان يترجمها ويصادرها لأمريكا.
إنه مترجم ذو نفوذ وعلاقات خارجيّة جيدة، إنه يجيد السخرية أكثر ممّا يجيد تسيير الحروب.
كان الجوكر وكل الرّجال يتفقدوننا ويطمئنون على وضعنا الصحي (أنا وريم).
والنساء تشرف على تيكيات الإطعام، وأصبحن يغرسن الخضار والفواكه، ويغيرن وجه الأرض اليباب.
محمد كبر وأصبح ابن الثلاث سنوات، تغيّرت ملامحه ليسرق ملامح أمّه، وتبدو عليه ملامح بطولة حسن.
قرّرت مريم أن تنجب مزيدا من الأطفال.
وهناك شخص بعد أن بدأ يتعافى، بدا وكأنه يحاول أن يعطي للجوكر فرصة ويكفّر عن أذيته له.
كانت ريم بعد شفاء قدمها تذهب بالأطفال للمسجد وتعلّمهم القرآن والحساب واللّغة، وكانت تسمح للجوكر بأن يوصلها ويحميها.

كانت تتحدّث إليه في الطريق.
كان يساعدها في ترميم المنازل وتوزيع الطّعام.
كانت تبدو لطيفة جدا، بدا وكأن الجوكر يتأثر بها ويغير من طباعه.
من الجميل أن أرى الجوكر سعيد مع شخص عداي.
كنت أحسّه وحيدا تائها خاصة بعد أن ترك موطنه وفقد هارلي كوين وأصدقاءه.
كان الجوكر يتأمّل ريم عندما تصلي أو تقرأ القرآن أو تلعب مع الأطفال أظنه ارتاح لها... هي الأخرى أصبحت تحدّثني عنه كثيرا.
أصبح جوكر يناديها بغزّة.
سعدت بالاسم الجديد.
بدأ الجوكر يتّزن ويهدأ أكثر ويحاول أن يكون معلّما جيدا للأطفال، كان يقلّد ريم ومن قلبه.
الأيّام تعصف بنا كهذه الحرب تماما وتسرع في تقاذفنا.
بدأت الأوضاع الغزاوية والفلسطينية تتحسّن شيئا فشيئا، نحن الآن نبقي الاحتلال محصورا ونحاول أن نبيني من جديد أن نرمّم البيوت ونعيد الغرس..
غرسنا كثيرا من الأشجار وأشجار الزيتون القادمة من الجزائر، زرعنا القمح والزعتر والحبّ والأمان.
بدأت الأرض تتغير وتودّع الحزن وتنمو بين تجاعيدها ربوعا خضراء وربيعا أخضر تجلّى في الأفق.
انحصر الاحتلال في نقطة واحدة قرب المعبر.

كان الجوكر الورقة الرّابحة في هذه الحرب، لقد تاجر وحارب باسم أمريكا وأربك الحرب بقناعته وسخريته وتمرّده وضحكته التي فجّرت إخرائيل دون قنابل.
الاحتلال ينزف كل يوم وأسطورة البقرة وبيت المقدس تبقى من أحلامهم الشريرة.
الغارات تكاد تنتهي والطحين والخير متوفر بكل مكان.
إنها رائحة اليوتوبيا العظيمة.
تفقّدت جرحي ذات صباح غزاوي جميل...
وجدته قد صار مجرّد ندبة بقيت لتشهد أنّي مسحت عار العرب وخيانتها.

أصبحنا نسكن بيت حسن بعد أن تعاوننا جميعا لإعادة بنائه، ولكن لازال العدوّ يتوعّدنا ويراقبنا، لكن الله معنا.
كتائب القسام لا تكفّ عن واجبها النبيل وهي شنّ طوفان الأمان على غزّة.
وكأنها تريد أن تكفّر عن طوفان الأقصى وما انجرّ عنه... عام ونصف من الدّمار والدّماء والقصف والموت.
ريم استغلّت المسجد بعد إصلاحه لتعلّم الأطفال القرآن وكانت أجمل اللّحظات التي رأيت الجوكر سعيدا بها وهي الصلاة في جماعة في المسجد، وكان صوت الشيخ أحمد بالتجويد رائعا فقد طبّق قوله صلى الله عليه وسلم: «زينوا القرآن بأصواتكم».

تغيّرت طبائع الجوكر كثيرا، فرحت لأن هذا بحدّ ذاته إنجاز لليوتوبيا.
في أحد الصباحات المباركة، وبعد أن أدّيت صلاة الفجر جلست بحديقة في منزل حسن صنعتها رفقة مريم وسمر والبنات، كانت جنّة جميلة جدّا تشبه فلسطين.
كنت أقتلع بعض الخضار لأجل تحضير الفطور والغداء.
التفتت وإذ بي أجد الجوكر خلفي.
صباح الخير والبركة.
صباح الهدوء والسّلام.
كم هي جميلة هدنة السّلام بين غزّة والمحتلّ.
أخيرا قرّروا الهدنة والانسحاب، تحدّثنا قليلا عن اليوتوبيا ومآل الحرب.
ثم أخبرني أنه يريد أن يطلعني على أمر.
ارتبكت، ترى ما هو؟
همس الجوكر في أذني.
تفاجأت: ماذا؟ هل أنت جاد؟
خفض رأسه وقال : نعم، متأكد كتلك اللّحظة التي وثقت فيها بالقدوم إلى هنا.
كان أجمل خبر تلقّيته في حياتي كلّها.
أعظم حتى من تحقيق اليوتوبيا.
جوكر، تريد الزواج حقّا من ريم؟
هذا أعظم ما ستفعله لليوتوبيا خاصتنا.

جوكر، لقد وثقت بك منذ اللّحظة الأولى وكنت أراك دوما المهرج العظيم الذي يدغدغ الدستوبيا حتى تجن.

ألف مبارك مسبقا، سأحدّث ريم بالأمر، أتمنى من كل قلبي أن توافق.

سأخبر الجميع.

لا، تأكدي من ريم أولا.

لماذا؟

هل تشعر بالخوف؟ هل تظنّ أن ريم سترفضك؟

لا يمكنها فعل هذا بك جوكر، هي أيضا طيبة ولطيفة.

كنت سعيدة للغاية.

أخيرا عادت الحياة للجوكر، لقد عاد للحبّ من جديد.

هذا ما تفعله اليوتوبيا الحقيقيّة، أن ترجع أحدهم من الموت وأن تعيد لأحدهم قلبه ليس بالأمر الهين، وأن تعيد السّلام بعد الحرب.

جمعت الخضار والفواكه من الحديقة.

توجّهت للمطبخ، وجدت أمّ محمد تغسل للأطفال بالماء الذي كان حلما غزاويّا، والأطفال ترقص تحت المياه ومحمد يتبع والدته.

صباح البركة مريم.

صباح الخير والتوفيق مروى.

أين الجميع؟

يبدوا أنهم غادروا مبكرا، لديهم اجتماعات داخل المركز الشرقي بجباليا.

لم أنتبه على خروجهم؟

كنت تحدّثين الجوكر، رأيتك وأنا متوجّهة للمطبخ كي أعدّ الفطور.

نعم، يبدو أنه لم يذهب معهم، علقت مريم.

هل هناك خطب ما؟ تبدين متوتّرة.

لا، أبدا لدي أمر سيسعد الجميع.

ما هو؟ على بركة الله، تفضلي قولي.

جوكر أعجب بريم ويريد الزّواج منها.

ماذا؟

تطلق مريم زغرودة فلسطينيّة طويلة، جعلت الكل ينتبه.

وخاصة ريم التي نامت متأخرة بعد صلاة الفجر.

ريم مفزوعة... ترتدي شبشبها وتأتي مسرعة: ماذا تفعلين؟

لماذا هذه الزغاريد؟

تقول مريم: ببيتنا عروس.

من؟

أنت.

ترتبك ريم كثيرا وتبتلع ريقها بصعوبة.

تنظر إلي وإلى محمد وهي في دهشة كبيرة... أتمزحون معي؟

هذا ليس مزاحا جيدا.

نظرت إليها بثبات وقلت لها: « لا نحن لا نمزح لقد تقدم الجوكر ويريد خطبتك على سنّة الله ورسوله».

وإن كان لديك مانع فلا بأس، سيتفهم الأمر.

ذهلت للحظات وبدت وكأن الفرحة لديها اختلطت بالدّهشة والحيرة.

أخذت أم محمد تقول: إنه شخص طيب.
ومريم: والله لن تجدي أفضل منه، مكثنا رفقته لسنوات وحارب معنا وكان مستعدا ليضحي بحياته لأجلنا ولأجل غزّة..
أرجوك لا ترفضي عرضه.
طلبت مني مريم أن أمهلها قليلا من الوقت.
فقلت لها: لا، لن أترك لك مجالا للتفكير لو كان سيئا لمنعتك عنه.
ريم أنت بمثابة أخت لي وهو كذلك، أرجوك وافقي.
تجمعت البنات حولها وبتشجيع من أم محمد أخذن يغنين لها أهازيجا فلسطينيّة ويصفقن ويطلبن موافقتها.
ضحكت ريم وبعد برهة من الزّمن: التفتت إلى سمر وبقيّة الفتيات وقالت: نعم، أقبل.
سعدنا كثيرا، احتضنت ريم وقلت لها من كان يدري أن الجوكر سيكون لك زوجا.
ضحكت وقالت: كل شيء ممكن مع إرادة الله مروى.
كنّا نخمن وبدأنا التفكير في ترتيب الزفاف سيكون زفافا بسيطا ولكنه ضخم يليق بسيادة الجوكر وريم الغزاويّة الأبيّة القويّة التقيّة.
انتظرت الجوكر حتى يأتي مساء.
أخذت أفكّر في ثوب ريم فقالت أم محمد سأعد ثوبها بنفسي سأجعله بالدانتيل الخفيف أو تنورة فلسطينيّة جميلة، وسأجعل لها مسكة عروس كلها ورود من أرض غزّة الطيبة.
سمر قالت: سنجمع الورد لنجهزه بالسلّة لننثره على العروسين.

فكرة طيبة.

كانت ريم تريد أن يكون الزّفاف بسيطا نظرا لمخلفات الحرب والظروف.

لكن بدت حزينة بعض الشيء.

سألتها: لماذا هذا الحزن على وجهك؟

ردّت بضعف وحزن: ليت أسرتي هنا لتشاركني هذه الفرحة.

الآن سأتزوج وأكمل دراستي كل أحلامي دون أهلي.

الله يرحمهم ريم إنهم بالجنّة، وسنجتمع يوما ما بهم.

لا عليك لا تحزني غدا فرحك.

لم أكن لأطيل هذا الزواج، أردته أن يحدث بسرعة لأن غزّة متعطّشة للفرح.

أم محمد ومريم أشرفتا على لباس العروسين وأنا ونور التي كانت متحفّظة جدّا تولينا أمر ترتيب مكان العرس.

سمر والبنات سيهتممن بأمر الورود والزينة.

بينما نحن نستعد ونجهّز أمور الزّفاف وحتى الدعوات.

قدم الرجال حسن والبقيّة.

ألقوا السلام، بدا عليهم التّعب وخدوش خفيفة.

قال حسن: اليوم انتصار عظيم، قلت: لم؟

قال علي: لقد تمكننا من قتل جماعة الاحتلال عند الضفّة الغربية من أريحا واسترجعنا يافا أخيرا.

يا له من خبر! خرّ الجميع سجّدا والنّساء بكيّا.

إنـه أسـعد خبـر، أخيـرا أفـرج عـن يافـا التـي نسـاها العالـم وظـنّ الكثيـر أنهـا مدينـة إسـرائيليّة.

قلت لحسن: لدينا أيضا خبر مفرح.

نظر إلى الجوكر بخجل وخوف.

في بيتنا عرس وعروسين.

ذهل الجميع وأخذ الجميع يسألون: من؟ من العروسين؟ كيف؟ عرس؟

نعـم، نظـرت إلـى الجوكـر وقلـت للجميـع: السـيد جوكـر طلـب يـد ابنتنـا ريـم علـى سـنة الله ورسـوله، مـن كان يـدري أنـه بعـد لقائنا معهـا بالصّدفة فـي الخيمـة سـتصير ريـم أقـرب إلـي مـن صديقتهـا مريـم وتحـوّل كرههـا للجوكـر إلـى قبـول.

لأوّل مرّة أرى عيون الجوكر سعيدة راضية ومطمئنة.

الحمد لله أخيرا.

لاحظـت داخـل عيـون الجوكـر أنـه وجـد المـكان الـذي يسـتريح فيـه وكأنه وجـد أمّـه ووطنـه الحقيقي.

صار الجميع يكبّرون ويهلّلون ويهتفون باسم الجوكر.

حمل الشّباب الجوكر وأخذوا يهتفون باسم الجوكر العريس.

بارك حسن والبقيّة لهما، وقال حسن: إذا لنجعل العيد عيدين.

أخبرته مريم أننا نستعد لتجهيز العروسين.

سـلّم الشـيخ أحمـد علـى الجوكـر وقـال: بـارك الله لكمـا وبـارك عليكمـا وجمـع بينكمـا فـي خيـر.

ستطرب غزّة لهذا الخبر، سيفرح الكبير والصغير.

سنوزع الحلوى، سنعوض على غزّة كل ذلك الحزن.

سعدت ريم بفرح الجوكر وفرح الجميع.

قال حسن: سنرتاح اللّيلة وفي الصّباح الباكر سنوفر مستلزمات الوليمة وسندعو الجميع.

اقتربت مني ريم وقالت: شكرا لكم.

لا شكر على واجب، أنتم من يجب علينا شكرهم.

ناديت الجوكر لأتحدّث معه قليلا في الحقيقة... نظرت إلى عينيه وقلت له: «أريد أن أوصيك على ريم، هي فتاة طيبة، اعتني بها وبقلبها وكن كما عهدتك، جوكر كن لها الوطن والانتماء».

اعتني بها جيدا، فهي غالية على قلبي.

جوكر يسترجع حسّه الفكاهي ويقول: ماذا عني؟ ألن توصيها أن تتوقف عن كرهي وأن تعتني بي؟

هاهاهاها لقد أضحكتني جوكر، بالطبع سأوصيها.

أتركك الآن، لأتفقّد البقيّة.

في المساء المتأخر التففنا جميعا حول موائد العشاء... بعد أن صلينا.

أخذ حسن يتّفق مع الرّجال كي يجهّزوا سطح المنزل لإقامة العرس وإحضار مستلزمات الوليمة.

ونحن النساء كنّا نتفق حول من تعدّ الوليمة، أكيد ستكون أم محمد بما أنها شيف ممتاز.

ومريم ونور ستعدّان بعض الحلوى الجزائريّة والفلسطينيّة، وخاصة بعض الكنافة.

سمر والبقيّة يجهزن الورود والزينة.

اتفقنا إذن.

الشيخ أحمد سيقرأ لهم الفاتحة ويدعو لهم.

قال حسن: فلنجعل هذا الزّواج انتصارا.

أخذ الليل يسرع خطواته وكأن النهار يطرده ليأتي يوم سعيد، يوم انتصار لذيذ.

بعد أن نظّمنا أمورنا توجهنا لننام فالتّعب أخذ منّا ما أخذ.

نحن بصدد التحضير للزّفاف ولكن مازالت رحى الحرب تدور والعدو لن يستسلم بهذه السهولة فالمقاومة المستمرة واجبة لضمان النجاة.

نام الجميع وأخذت أفكّر كيف سيبدو الجوكر غدا، هل هو نائم الآن أم من شدّة الفرح لم يتمكّن من النوم؟

أخذت أفكّر حتى أطبق النوم على جفنيّ.

استيقظت في الصباح على صوت دبكة فلسطينيّة، كان الشباب قد استيقظوا باكرا جدّا وذبحوا شاة ودجاجتين، كان هذا كل ما نملكه بعد سنوات من الترميم والكفاح ومحاولة تأميم الحياة.

وكان حسن قد أحضر كل ما تحتاجه أم محمد لإعداد الوليمة...

يبدو أنني الوحيدة التي تأخرت في الاستيقاظ.

ريم لم تكن بفراشها وكذلك مريم والبقيّة..

تبّا، لماذا لم توقظني إحداهن؟

تركـت الفـراش بعـد أن وضّبتـه وتوجهـت للحـوش الكبيـر حتـى أغسـل وجهـي وأتوضـأ لأؤدي صـلاة الفجـر متأخـرة أول مـرة لا أؤديهـا فـي وقتهـا.

تحسرت كثيرا على الصلاة التي تخلفت عنها بسبب النوم العميق.

رأيـت سـمر تغنّـي وتجهـز الـورود وصنعـت زينـة جميلـة جـدّا بألـوان فلسـطينيّة مذهلـة والبنـات يغنيـن.

صباح الخير مروى، هل ارتحت قليلا؟

نعم، ولكن لماذا لم توقظوني كي أباشر بالتحضير؟

مـروى لقـد تعبـت كثيـرا منـذ بدايـة الحـرب، وقالـت أم محمـد أتركوهـا لترتـاح.

آه يا أمّ محمد، الرّاحة في الجنّة.

المهم، أين وصلتم بالتحضيرات؟

أم محمـد بـدأت تعـدّ القـدور وتطهـو اللّحـم لوحـده ثـم تطبـخ الكبسـة وبقيّـة الأكل، لقـد أعـددت مسـتلزمات الشـربة الجزائريّـة سـيتذوقها الغزاويـون لأوّل مـرّة.

جميل جدا، فكرة رائعة.

أظن أنك اعتبرت الجوكر جزائريّا، نعم، ولم لا.

كما تريدين.

يبدو أنهم يعدّون بشكل جيد.

لم أر ريم؟

أين هي؟

مريم: ترى أين ريم؟

إنها بالغرفة المجاورة تستحم.

آه، حسنا صحّة وعافية.

الله يعافيك.

عندما تخرج سأتحدّث إليها.

مكثت بالمطبخ قليلا للمساعدة في تسوية الحلوى رفقة مريم ونور.

تركتهم... عندما قدمت ريم.

زغردت النّساء على العروس.

وصعدت معها لغرفتها وسألتها إن كانت سترتدي التنورة الفلسطينيّة أم ثوب الدانتيل الأبيض؟

فضّلت أن ترتدي التنورة الفلسطينيّة.

جميل ولا شيء أجمل من رائحة التّراث والوطن والأجداد.

تبدو ريم جميلة جدا من غير مساحيق التجميل وحتى ولو كانت غير ذلك للأسف لا نملك مساحيق تجميل باليوتوبيا الجديدة.

ريم جميلة كغزّة، لم تكن تحتاج مجهودا كي تبدو جميلة.

مجرّد إكليل ورد فوق رأسها والتنورة الجميلة كانت بيضاء بطرز فلسطيني أحمر جميل، تفي بالغرض وعيناها الخضراوان اللتان تحملان كل الحبّ والجمال.

رافقتها في تزيين شعرها الأشقر وارتداء تنورتها ووشاحها الأبيض فكانت صورة فلسطين الجميلة.

كانت ترتسم على وجهها ملامح غزّة التي لم تر الحرب مطلقا.

ناديت الجميع أقصد النساء كي يروها، فقلن: بسم الله ما هذه بشر!
كانت ملاكا طاهرا، كانت فاتنة جدّا.
سيذهل الجوكر عند رؤيتها.
تركت معها سمر والبنات يجب ألا يرى أحد العروس إلا عند قدوم العريس وبداية الحفل.
ملاك التي كانت معنا طيلة الحرب رحمة الله عليها وهي الآن شهيدة عند ربّها ملاك فادي، ليتها كانت معنا اليوم.
نزلت إلى حيث أم محمد ومريم ونور كل شيء في مكانه والطعام يكاد يجهز، قدم الرجال، سألتهم إن كانوا قد أعدّوا المكان وجهزوا كل شيء.
قال حسن والشيخ أحمد: كل شيء بمكانه، أما الجوكر فإن عمار وخالد يجهزانه فعمار صاحب ذوق رفيع.
لم تكن الحوانيت كثيرة، دكانين أو ثلاثة فقط.
أخرج حسن من جيبه علبة قطيفية الملمس وقال زغردن: «هذه دبلة العروسين».
فتح العلبة، كانتا رائعتين.
هنأهم الله بهذا العرس وهذه الخواتم وجعلهم سعداء في الدنيا والآخرة ورزقهم الذريّة الصالحة.
لما فرغت أم محمد من الطهو، ذهبت لتستقبل النّساء اللاتي قامت بدعوتهن وكذلك مريم.

مـا إن حـل المسـاء حتـى امتـلأ البيـت وسـطحه بالمدعويـن وحتـى الحـوش كان الجمـع غفيـرا، زينـت سـمر المنـازل بالمصابيـح الصغيـرة وكانـت صديقـات أم محمـد يقمـن بالتصفيـق والغنـاء والقـرع علـى الطبـول.

كان الجو رائعا، استرجعت الأيّام في البلاد.

جهّزنـا الطـاولات والمشـروبات والحلـوى، ارتدينـا مـا نملكـه مـن أحسـن الثياب.

قدم الجوكر، كان جميلا جدّا ووسيما حتى تغيرت ملامحه بالكامل.

كان سـعيدا جـدّا، كان يرتـدي كوفيّـة وسـروالا أبيـض وقميصـا غزاويّـا مطـرزا.

الحمد لله.

بـدأ الليـل يقتـرب، اشـتعلت المصابيـح وكان الجـوّ مبتهجـا صعدنا وأشـعلنا الشّـموع كـي نأتـي بالعـروس بعـد أن قـرأ الرّجـال الفاتحة..

كانـت مرتبكـة ريـم، وكانـت تقرأ شـيئا مـن القـرآن، نزلـت وكانـت تشـعّ بهـاء وأبهـة وأضـاف الخجـل عليهـا وشـاحا مـن غنـج لطيـف.

أتخيلهـا غـزّة التـي تنـزل بهـدوء كملكـة نـادرة ومدينـة لـم يدخلهـا أحـد، جعلـت الجوكـر يتأمّلهـا كأنهـا انتصـاره الوحيـد.

الجميع يهتف ويغني للعروسين.

سـلّمت علـى الجوكـر وقبّـل هـو الآخـر جبينهـا، وقدّمـت إليهمـا سـمر الخواتـم فكانـت فـي أيديهمـا كطـوق النّجـاة.

بـدا الجوكـر وريـم بقمّـة السـعادة والطهـر رزقهمـا الله السـعادة والذريّـة الصالحـة.

كـم هـي جميلـة صـدف الحيـاة، مـن كان يعلـم أن ريـم سـتكون يومـا زوجـة الجوكـر؟

بدأنـا بتوزيـع الحلـوى علـى الجميـع والأطفـال وشـرعت أم محمـد ومريـم ونـور فـي إعـداد موائـد العشـاء.

اقتـرب منـي حسـن، والـذي كان مشـغولا جـدا بتنسـيق موائـد الرّجـال مـن الجيـران وأصحابـه والشـباب الذيـن شـاركوا معنـا بالمقاومـة.

أخبرنـي أن الزوجيـن سيسـكنان فـي بيـت ريـم الـذي قصـف، لقـد أعـاد بنـاءه كهديّـة عـرس.

لم أصدّق ما سمعته، إنها أجمل ما يمكن تقديمه لريم بيتها العائلي.

شكرا لك.

العفو.

لن أنسى معروفه.

عاد مسرعا إلى خالد الذي لم يكفّ عن مناداته.

(مـرّت الأيّـام وكانـت ريـم سـعيدة جـدا رفقـة الجوكـر الـذي لـم يخـن عهـده لـي فقـد كان يعتنـي بهـا جيـدا، كمـا أن ريـم تعتنـي بـه أيضـا ومسـكنها العائلـي أيضـا أعـاد لهـا اسـتقرارها النفسـي.

توالـت الأيـام ولازلنـا نحـاول إخمـاد محـاولات الاحتـلال الفاشـلة فـي كسـر الهـدوء والسـلام.

كنـا نتعـاون فـي كل شـيء ونحـاول دومـا البنـاء والترميـم وخاصـة المسـاجد والمـدارس لأنهـا أسـاس اليوتوبيـا النّاجحـة.

بـدأ وجـه غـزّة يعـود للحيـاة مـن جديـد، ضحـكات الأطفـال وأشـجار الزيتـون والخبـز العربـي والزعتـر.

كانـت ريـم تأتـي دومـا معنـا لأننـا بصـدد بنـاء بيـت جديـد لنـا لنتـرك بيـت حسـن لزوجتـه وطفلـه.

سنكون جيرانـا، ولا شيء أفضل من الوحدة.

كنـت أفتقـد الجوكـر كثيـرا، كان منشـغلا كثيـرا بالعمليـات العسـكريّة مـع حسن .

مضـت الأيّـام ومعالـم غـزّة بـدأت تتضـح، كبـرت الأشـجار الصغيـرة وبدأنـا نعيـد الـزرع ونبنـي بيوتـا جديـدة وبنينـا رفقـة الشّـباب مدرسـة للأطفـال.

وكان عمار يحاول جاهدا أن يدعم غزّة بكل ما في البلاد من خير.

ستكون فلسطين محظوظة لو كان عمار فلسطينيّا).

وفـي يـوم مـن الأيّـام ونحـن بالحـوش الكبيـر رفقـة أم محمـد والجميـع نتعـاون فـي صناعـة أوانـي الفخّـار.

شعرت ريم بدوار بسيط ولاحظت أنّها منذ يومين لا تأكل كعادتها.

أخبرت نور بالأمر فقرّرت الكشف عليها بالمشفى.

قرّرت أخيرا ريم الذهاب رفقتها للكشف الطبي.

ومـا هـي إلا لحظـات حتـى اتصلـت نـور لتنقـل لـي أجمـل خبـر تلقيتـه بعـد خبـر زواج الجوكـر، مفـاده أن ريـم حامـل.

فرحت كثيرا.

سجدت لله شكرا.

هممت بزفّ الخبر إلى أهل البيت، حتى دخل حسن محطّما باكيا ويداه ملطختان بالدّم تبعه البقيّة عدا الشيخ أحمد.

تسلّل الخوف والرّعب إلى داخلي.

ما بك؟ ما الذي جرى؟

تجمّعنا كلّنا حوله، مريم تكاد تخنقه، تكلّم ماذا هناك؟

أنت تخيفنا.

قلبي انقبض وكاد أن يخرج من مكانه.

قال: استشهد الجوكر رحمه الله.

صعقت، التصقت بالجدار.

تجمّدت مريم...

أم محمد سقطت أرضا، الأطفال بدأوا بالبكاء، سمر انفجرت باكية شعرت بالقهر، دموعي تحجّرت، كيف تمكنوا منه؟ لماذا هو؟

قال اخترقته رصاصة قنّاص غادرة عندما اشتبك مع جندي وحاول التصدّي للمدرّعة من الاقتراب.

لماذا؟

اقترب مني ووضع شيئا بيدي، قال إنه أمانة تركها لريم، فتحت يدي وإذ به خاتم زواجه.

يا الله صبرك، صبرك... اللّهم لا أسألك ردّ القضاء وإنّما أسألك اللّطف فيه. حاولت أم محمد تمالك نفسها وهي تقول إنا لله وإنا إليه راجعون أنت وابني إن شاء الله في الجنّة.

آمين، آمين.

بالكاد نحاول لملمة دموعنا وتمالك أنفسنا وكيف سنقول لريم.

حتى دخلت رفقة نور، كانتا سعيدتين حتى رأتا وجوهنا ريم أدركت أن هناك خطبا ما.

قال حسن: زوجك استشهد.

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات شهيدا إلى الجنّة يا رب.

أنى لها بهذا الصبر؟

قالت: سيأتي خليفته.

قالت نور: هي حامل بصبي.

ارتسمت فرحة كاذبة على وجوه الجميع وردّدنا: جوكر لم يمت.

لوهلة تذكّرت تلك الرؤيا التي رأيتها يوم أصبت.

رحل الجوكر ولكن ليس ببساطة، لم يقتله الاحتلال وجها لوجه بل قتله غدرا.

(غدا استقبلنا جثّة الجوكر العظيم صلى عليه الجميع قبّلته زوجته وقبّلت جبينه، كانت صبورة جدا لأنه ترك لها الخليفة والأنيس، هذا هو الجوكر كريم جدا وصادق فصدقه الله، تم تشييع الجنازة بحزن كبير، ودفن بجانب ريم وطارق... كنت المتأثرة الكبيرة لأني أنا من أحضرته لعالمنا وتذكّرت كل شيء وأنا أعلّمه الصّلاة واللّغة العربيّة وكل شيء.. غفر الله له ورحمه ومن أسّس يوتوبيا النور والخير لم يمت...

تم دفنه بمقبرة الشّهداء مع جدّي وبقيّة شهداء فلسطين... وأحفاد الجدّ خالد... إلى الجنّة يا رب... لقد مات مسلما شهيدا وهذه أكبر خيبة لأمريكا).

لن ننساه من دعواتنا...
هي ليست نهاية أكتبها، سيكبر ابنه يوما ونكمل ما بقي...

أحاول أن أصمت قليلا ترحّما عليه.

«وداعا جوكر»

لم تنته الحرب ولا المقاومة ولن يغفر الزّمن كل هذا الدّمار، ولن ينسى التاريخ مجزرة فلسطين وغزّة، وأنّها من أقبح ما فعلت وحوش الاحتلال، هذه الدستوبيا التي يشارك فيها الجميع، تبحث اليوم عن ماهيتنا وتاريخنا ولغتنا ودیننا لتتغذى عليه.
وقد بدأت رحلتها من غزّة، ومن المعلوم أين ستنتهي وكيف ستزحف.
جميعنا شاركنا في هذه المجزرة، شاركنا في القتل والتجويع ولا يمكن أن ننكر هذا..
لن تنتهي اليوتوبيا بموت الجوكر العظيم الذي شكّل فقدانه اهتزازا لليوتوبيا.
وفاجعة لأطفال كان يرى نفسه فيهم.
ولزوجة أحبّها أكثر من وطنه.
الآن سنكمل اليوتوبيا رفقة الجوكر الصغير، وليتأكد الاحتلال أن وراء كل شهيد جيشا جديدا.

لن تموت غزّة بسهولة

لن تغيب فلسطين عن الخريطة

عادت غزّة للحياة، وسيصبح كل العالم فلسطين

سيبدأ العالم من غزّة، وينتهي عند كل قدم خائنة.

سنكمل الحرب

سنصنع قبّة من حديد

ونكتب فوقها جملة مفادها

«يمنع دخول الخائنين».

ترحّم على كل شهداء غزّة وفلسطين

أذكرهم بدعوة

ولا تتخلّى عن القضيّة

العالم كله فلسطين

سيأتي سنوار جديد

أما عن البلاد، لا تقلق سأعود يوما ومعي الجوكر الصّغير

ستكون الجزائر بخير

حفظ الله البلاد

أيّها الأجنبي

أحبّ بلادي

بلادي عزيزة وإن جارت عليّ

سأخدمها من كل بقاع العالم

سأفديها بكل ما أملك

واليوم الجميع يدعو للحراك

أوصيك

لا تفعل شيئا يؤذي الجزائر

داخل غزّة أدركت نعمة الوطن الهادئ

نعمة الرّئيس

نعمة السماء ونعمة الأرض

الجزائر قبلة الثوّار

وستكون قبلتنا الجديدة بعد غزّة

أيّها الجندي الذي قتل الجوكر

لا يمكنك أن تهرب، سأقتلك لاحقا

وإن ذكرت الجزائر مجدّدا سأقطع نسلك.